2020
1.1.2020

هنري جيمس

درسُ المعلّم

ترجمة:
يزن الحاج

رواية

مسكيلياني

هنري جيمس

درس المعلّم

ترجمة: يزن الحاج

عنوان الكتاب الأصليّ

The Lesson of the Master
By Henry James

الكاتب: هنري جيمس
عنوان الكتاب: درس المعلّم
ترجمة: يزن الحاج
مراجعة: عبد المنعم محجوب

خط الغلاف: سمير بن قويعة
تصميم الغلاف: محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-24-049-8
الطبعة الأولى: 2019

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

1

قيل له إنّ السيّدات كنّ في الكنيسة، لكن ذلك تمّ تصويبه بما رآه من أعلى الدَّرج، كانت الدَّرجات تنحدر من ارتفاع شاهق بين سياجين، مع انحناء دائريّ ذي تأثير ساحر، وعند عتبة الباب الذي يطلّ، من الرّواق الساطع الطويل، على المرج الفسيح؛ جلس ثلاثة رجال على العشب، بعيدًا، تحت الأشجار الضخمة، بينما بدا الشخص الرابع في ثوب قرمزيّ قيل إنّه مثل «لطخة لون» في ذلك الاخضرار الكثيف النّضر. كان الخادم حتّى تلك اللحظة قد رافق بول أوڤرت كي يُريه هذا المنظر، بعد أن سأله عمّا إذا كان يودّ الذهاب إلى غرفته أوّلًا. رفض الشابّ هذا العرض، مُدركًا أنْ لا ضرر من مثل هذه الرحلة القصيرة البسيطة، إذ كان يحبّ دومًا أن يتمتّع بإلقاء نظرة متبصّرة عامة على كل مشهد جديد. وقف هناك برهة مركِّزًا نظراته على ذاك الجمع وعلى المشهد الجميل والأراضي الواسعة المحيطة ببيت ريفيّ قديم قرب لندن -وهو ما جعله يبدو أفضل- في يوم أحد بديع من شهر يونيو.

«ولكن من تكون تلك السيّدة؟»، قال للخادم قبل أن يغادره.

«أظنّ أنّها السيّدة سانت جورج، يا سيّدي».

«السيّدة سانت جورج، زوجة الرجل الشّهير...»، ثمّ انتبه پول أوڤرت، وقد انتابه الشكّ في أن يكون الخادم على علم بالجواب.

«نعم، سيّدي... على الأرجح، سيّدي»، قال مرشده الذي بدا أنّه يودّ التلميح إلى أنّ أيّ شخص يقيم في سَمَرسوفت سيكون، بطبيعة الحال، شهيرًا، وإن يكن ذلك عن طريق صلة قربى أو مصاهرة. ومهما يكن من أمر، فإنّ نبرته جعلت المسكينَ أوڤرت يدرك لوهلةٍ كم هو عاثر الحظ.

«والسّادة؟»، تابع أوڤرت أسئلته.

«حسنًا، سيّدي، أنّ أحدهم هو الجنرال فانكورت».

«آه نعم، أعلم هذا؛ شكرًا لك». كان الجنرال فانكورت شهيرًا، لم يكن في ذلك شكّ، بسبب أمرٍ فعله -أو ربّما لم يفعله- قبل سنوات عديدة في الهند. ولم يستطع الشابّ تذكّر أي الأمرين هو.

ابتعد الخادم تاركًا الأبواب الزجاجيّة مفتوحةً على البهو، وبقي پول أوڤرت عند رأس الدّرج المزدوج الواسع، محدّثًا نفسه بأنّ المكان كان جميلًا ويعِدُ بزيارة بهيجة، وهو متّكئ على سياج الدرج الحديدي القديم الممتاز الذي يعود، مثل كل التفاصيل الأخرى، إلى الفترة ذاتها التي شُيّد فيها البيت. كانت كلّها متناسقة تتحدّث بصوتٍ واحد، صوتٍ إنكليزيّ ثريّ من النصف الأوّل من القرن الثامن عشر. قد تكون تلك الفترة من زمن الكنَسيّة في يومٍ صيفيٍّ من أيّام حُكم الملكة

آن[1]؛ كان السّكون أكملَ من أن يكون حديثًا، وكان القُرب محسوبًا بدقّة كما البُعد، وكان هناك أمرٌ شديد النّضارة والقوّة في أصالة هذا البيت الصقيل الضّخم، وفي امتداد القرميد الجميل الذي يبدو أقرب إلى الورديّ منه إلى الأحمر، وقد ظلّ في مِنعةٍ من المتطفّلين الفوضويّين بفعل قانونٍ تترفّع فيه امرأة ذات بشرة نادرة عن ارتداء وشاح. حين تفطّن پول أوڤرت إلى أنّ أولئك الجالسين تحت الأشجار قد انتبهوا إليه استدار عائدًا عبر الأبواب المفتوحة نحو البهو الكبير الذي كان يمثّل مفخرة المكان. لقد كان يمتدّ من الزاوية إلى الزاوية وبدا -بألوانه المتألّقة، ونوافذه المؤطّرة العالية، وستائره القطنيّة المُزهَّرة الباهتة، وصوره ولوحاته التي يسهل التّعرّف عليها، والخزفيّات البيضاء والزرقاء في خزائنه، والورود والأكاليل المنقوشة في سقفه- بمثابة طريق منجَّدةٍ مُبهجةٍ إلى ذلك القرن الآخر.

كان صديقنا على شيء من التوتّر، وذلك يوافق شخصيّته دارس النّثر الجميل فيه، ويوافق الميلَ العام لرعشة الفنّان؛ وثمّة انفعال خاصّ بسبب فكرة أن هنري سانت جورج ربما كان موجودًا في هذه الحفلة. فهذا الشابّ الطَّموح كان شخصيّةً أدبيّةً مرموقةً، على الرغم من مستوى الإنتاج المنخفض الذي انحدر إليه بعد نجاحاته العظيمة الثلاثة الأولى، والغياب النسبيّ للجودة في عمله الأخير. كانت هناك لحظات كاد پول أوڤرت يذرف فيها الدّموع من أجل هذا، ولكن الآن، وبما أنّه بات قريبًا منه -ولم يكن قد التقى به من قبل

(1) الملكة آن Anne: ملكة بريطانيا بين 1702 - 1714.

قطّ-فإنّ وعيه لم يُحِط بغير ذلك المصدر الأصلي الرفيع، وبما يدين به له من فضل هائل. وبعد أن ذرع البهو مرّةً أو مرّتين صعودًا ونزولًا خرج ثانية ونزل الدَّرج. لم يكن مهيّئًا سوى بالقليل مما يلزم من جرأة اجتماعية -وتلك في حقيقة الأمر نقطة ضعف فيه- لذا، وهو يدرك رغبته في التعرّف إلى الأشخاص الأربعة الجالسين بعيدًا، أفسحَ المجال لبعض الحركات التي استدعاها عدم السماح له بالتقرّب منهم إيجابيًا. كان هناك نوع من التعنّت الإنجليزي في هذا. شعر بذلك أيضًا وهو يتسكّع بخطوات غريبة متثاقلة على المرج، وقد اتّخذ مسارًا مستقلًّا عنهم. ولحسن الحظّ، ظهرت بشكلٍ مماثلٍ تلك الصراحةُ الإنجليزية الرفيعة عندما نهض أحد السادة كأنه يتربّص به ولكنْ بتصالح وطمأنينة، واستجاب پول أوڤرت لهذه المبادرة على الفور، وإن لم يكن السيّد هو مضيّفه. كان كهلًا طويلًا ممشوق القامة، وكان له، مثل البيت الكبير نفسه، وجهٌ مبتسمٌ متورّد، بالإضافة إلى شاربه الأبيض. لقيه صديقنا الشابّ في منتصف الطريق فضحك الرجل وقال: «إمم، لقد أخبرتنا ليدي ووترماوث بأنّك قادم؛ وطلبت منّي أن أعتني بك». شكره پول أوڤرت، وقد استلطفه على الفور، واستدارا معًا ليمشيا باتّجاه الآخرين. «لقد ذهبوا كلّهم إلى الكنيسة، ما عدانا»، تابع الغريب كلامه وهما يمشيان. «نكتفي بالجلوس هنا، الجوّ لطيفٌ جدًا». وقد شعر أوڤرت بهذا اللطف حقًا: يا له من مكان جميل فعلًا. وأشار إلى أنّه شعر للمرّة الأولى بهذا الانطباع السّاحر.

«آه، لم يسبق لك الحضور إلى هنا؟»، قال مرافقه. «إنّه مكان صغير لطيف، وليس هناك شيء كثير لتفعله، كما تعلم». تساءل

أوڤرت عمّا يريد هذا الرجل فعله، إذ أحسّ بأنّه كان يفعل الكثير. وما إن وصلا إلى حيث جلس الآخرون حتّى انتبه إلى أنّ الرجل صاحب المبادرة كان عسكريًّا، وكذا وجده -بحسب جموح خيال أوڤرت- أكثر تعاطفًا من الآخرين. كان من البديهيّ أن يحتاج إلى تصرّفات أو أفعال تختلف عمّا في المشهد الريفيّ المسالم. وعلى أيّة حال فقد بدا من الواضح أنّه طيّب المعشر، وتقبّل پول أوڤرت هذه الساعة غير المشرّفة بكلّ ما تستحقّه؛ بل شاركه فيها، كما شارك مرافقيه، طيلة العشرين دقيقة التالية. وقد نظر هذا العسكريّ إلى پول الذي نظر هو أيضا إلى الآخرين دون أن يعرف الكثير عمّن يكونون، بينما تواصلَ الحديث من غير أن يعرف حتّى مغزاه. والحقّ أنّه لم يكن في الحديث أيّ معنى محدَّد؛ كان يتنوّع، مع توقّفات لا معنى لها أحيانًا وإقلاعات مؤقّتة قصيرة، بين أسماء أشخاص وأمكنة، أسماء لم يكن لها عنده من القوّة ما يستدعي إلى ذهنه شيئًا محدّدًا. كان كلّه حديثًا اجتماعيًا بطيئًا، كشأن الأحاديث المألوفة والمعتادة في صباح يوم أحد دافئ.

كان تركيزه موجَّهًا بالدرجة الأولى إلى السؤال -الذي يعنيه بشكل خاص- عمّا إذا كان أصغر الرّجلين سنًّا هو هنري سانت جورج. لقد كان يعرف كثيرين من معاصريه البارزين من خلال صورهم، ولكنْ لم يسبق له، على الإطلاق، أن رأى صورةً للروائيّ الضالّ العظيم. بدا أحد الرجلين احتمالًا مستحيلًا، لأنّه كان صغيرًا جدًا، أمّا الآخر فلم تكن تبدو عليه أمارات الذكاء إلاّ قليلا، مع مثل هاتين العينين غير المميَّزتيْن، فإذا كانت هاتان العينان عينَي سانت

جورج، فإنّ الإشكال الذي تُسبّبه أجزاء جسد العبقريّ غير المتناسقة ستبقى عصيّةً على الحلّ لوقتٍ أطول. ثمّ إنّ سلوك صاحبهما، في ما يخصّ السيّدة ذات الفستان الأحمر، لم يكن طبيعيًا تمامًا كما ينبغي أن يكون مع زوجته العزيزة، وإن تعلّق الأمر بكاتب يتّهمه نقّاد كثيرون بأنّه يضحّي بالكثير من أجل المظاهر.

وأخيرًا انتاب پول أوڤرت إحساس غامض بأنّه لو كان هذا الرجل ذو العينين الخاليتين من التّعبير يحمل الاسم الذي لطالما جَعَلَ دقّات قلبه أسرع (وكان له أيضًا شارب عاديّ غير متّسق، ولم يسبق مطلقًا للمعجب الشابّ بهذا الكاتب الشهير أن رأى في مخيّلته وجهه بمثل هذا المظهر السوقيّ) لكان قد تعرّف إليه على الفور وأحسّ تجاهه بشيء من الألفة، وسمع ولو حديثًا متفرّقًا عن صفاته هذه واطّلع على «جنستريلا» وفهم السّرّ وراء ما جعل هذه القصّة الخياليّة ذات الطّابع التّجديديّ تلفت أنظار النّقد الواقعيّ. كان لدى پول أوڤرت تخوُّفٌ من أن يكون متعجرفًا إلى حدّ مقزّز، ولكنْ حتّى أقصى درجات التّواضع ستعتبر أنّ تأليف جنستريلا يؤسّس لدرجةٍ مّا من التميّز. كانت شخصيّة صديقه العسكريّة قد باتت واضحةً بما يكفي: إنّه «فانكورت»، ولكنّه «الجنرال» أيضًا؛ وقد قال للزائر الجديد قبل لحظات عديدة إنّه عاد مؤخّرًا بعد خدمة عشرين عامًا خارج البلاد.

«والآن ستبقى في إنكلترا؟»، سأله الشابّ.

«أوه، نعم. لقد اشتريت بيتًا صغيرًا في لندن».

«وأتمنّى أن تكون قد أحببته»، قال أوفرت، وهو ينظر إلى السيّدة سانت جورج.

«حسنًا، إنّه بيت صغير في حي مانشستر، والحماس الذي يلهم به محدود».

«أوه، كنتُ أعني رجوعك إلى الوطن من جديد، أن تعود إلى بيكاديلي».

«ابنتي تحبّ بيكاديلي، هذا هو الأمر المهمّ. إنّها شغوفة جدّا بالفنّ والموسيقى والأدب وما شابهها من أمور. لقد افتقدتْها في الهند وستجدها في لندن، أو هي تأمل أن تجدها. وعدها السيّد سانت جورج بأن يساعدها، كان لطيفًا معها إلى أبعد حدّ. وقد ذهبت إلى الكنيسة -هي شغوفةٌ بهذا أيضًا- لكنّهم سيعدون خلال ربع ساعة. ينبغي أن تسمح لي بأن أقدّمك لها، ستكون سعيدة جدّا بالتعرّف إليك. بل أجرؤ على أن أقول إنّها قرأتْ كلّ كلمةٍ مباركةٍ كتبتَها».

«سيسرّني هذا، لم أكتب أعمالًا كثيرة»، قال أوفرت متذرّعًا، وهو يشعر، في غير استياء، بأنّ الجنرال هو الغموض ذاته بشأن هذا الأمر على الأقلّ. ولكنّه تساءل برهةً عن السبب الذي منع الجنرال المرموق، بلا أدنى شكّ، من أن ينطق، في مبادرته الودودة، بالكلمة التي تُشيِّد جسرًا بينه وبين السيّدة سانت جورج. فلو كانت المسألة تخصّ التّعارف لكانت الآنسة فانكورت -ومن الواضح أنّها لم تتزوّج بعد- بعيدةً عن هذا المكان، بينما كانت زوجة زميله الشّهير موجودة هنا بينهما تقريبًا. صعقتْ هذه السيّدة پول أوفرت بجمالها الفائق، مع

شباب مفاجئ وذكاء كبير في ملامحها، وهو أمرٌ -ولم يكد يعلم سبب تفكيره في هذا- شديد الغموض. كان لسانت جورج، ولا شكّ، كلّ الحقّ في أن تكون له زوجة ساحرة، ولكن ما كان لپول نفسه أن يتصوَّر البتّة أنّ هذه المرأة الشابّة المهمّة في فستانها الباريسيّ الصّارخ رفيقةُ درب أحد الأدباء، أناه الأخرى. فشريكة الحياة عمومًا -على حدّ علمه- أو تلك «الذّات الثّانية»، كانت أبعدَ من أن تُقدّم نفسها بوصفها نموذجًا منفردًا: فقد علّمته دقّة الملاحظة أنّ الشريكة لا تكون واضحةً بشكل راسخ بالضّرورة. ولكنْ لم يسبق له قطّ أن رآها تبدو بقدرٍ كبير كما لو أنّ لسعادتها أسسًا أعمق من مجرّد طاولة مكتب مبقّعةٍ بالحبر تتكوّم عليها المسوّدات. لعلّ السيّدة سانت جورج بدت أقرب إلى أن تكون زوجة سيّد «يمتلك» الكتب منه إلى زوجة رجل يؤلّفها، سيّد يضطلع بمسائل كبرى في المدينة ويعقد صفقات أفضل من تلك التي يعقدها الشّعراء مع النّاشرين في غالب الأحيان. بهذه السّمات كانت تومئ إلى نجاحٍ أكبر من الناحية الشخصيّة، نجاح يسم بقوّةِ العصرَ الذي يستوي فيه المجتمعُ، أو عالمُ الأحاديث، صالةَ استقبال هائلة تكون المدينة كلّها بمثابة غرفة انتظار ملحقة بها. فكّر أوڤرت للوهلة الأولى أنّ عمرها قد يناهز الثلاثين، ثمّ انتهى إلى تقدير أنّها قد تقترب من الخمسين. لكنّها بدت في حالتها تلك قادرة على إذابة ذلك الفارق العمريّ وإزالته تمامًا، فلا يمكنك إلا أن تراه بلمحة خاطفة، مثل أرنب في جعبة ساحر. كانت بيضاء على نحوٍ مذهل، وكان كلُّ جزء وتفصيل من جسدها جميلًا؛ عيناها، أذناها، شعرها، صوتها، يداها، قدماها اللتان ذاع بفضلهما صيتُ جلستها المسترخية

على كرسيّها الخيزران، والشّرائط العديدة والحليّ التي تزيّنت بها. بدتْ كما لو أنّها ارتدت أفضل ملابسها كي تذهب إلى الكنيسة ثمّ بدا لها أنّها كانت أبهى من ذلك فبقيت في البيت. حكتْ قصّةً كانت على شيء من الطّول عن الطريقة المبتذلة التي تعاملت بها ليدي جين مع الدّوقة، بالإضافة إلى حادثة طريفة تتعلّق بإحدى مشاوير تسوّقها في باريس، وهي في طريق عودتها من مدينة كان؛ اشترت شيئا لليدي إغبرت لم تسلّمها ثمنه بعد. ظنَّ پول أوڤرت في بداية الأمر أنّها تميل إلى إظهار الشخصيّات المرموقة على أنّها أكبر من الحياة، حتّى انتبه إلى الأسلوب الذي تحدّثت به عن ليدي إغبرت، وكان أسلوبًا متمرّدًا إلى حدّ كبير أعاد الطمأنينة إلى نفسه. أحسّ بأنّه كان ينبغي له فهمها على نحوٍ أفضل لو أُتيحت له فرصة النّظر إلى عينيها؛ ولكنّها لا تكاد توجّه نظراتها إليه. «آه، ها قد جاؤوا، كلّ أولئك الطيّبين!»، قالت أخيرًا؛ وشعر پول أوڤرت، وهو في مكانه، بالامتنان لعودة أولئك الذين ذهبوا إلى الكنيسة، كانوا أناسا عديدين، في جماعات من شخصين وثلاثة، يتقدّمون متنقّلين بين الشمس والظلّ في نهاية أفقٍ أخضر واسع ترسم حدوده أعشاب المرج القصيرة والأغصان المنحنية.

«إنْ كنتِ تلمّحين إلى أنّنا أشرار، فأنا أعترض»، قال أحد السادة، «بعد كلّ ما بذله المرء طوال الصباح ليكون مستساغًا!».

«آه، هذا إذا كانوا يجدونك مستساغًا..!»، صاحت السيّدة سانت جورج بسعادة، «ولكن إن كنّا جيّدين فإنّ الآخرين أفضل».

«لا بدّ أن يكونوا ملائكة إذن»، قال الجنرال مستمتعًا.

«زوجك كان ملاكًا، حينما استسلم لأوامرك»، أوضح السيّد الذي تكلم في البدء للسيّدة سانت جورج.

«لأوامري؟».

«ألم تجعليه يذهب إلى الكنيسة؟».

«لم أجعله طوال حياتي يفعل أيّ شيء غير مرّة واحدة، حين طلبتُ منه إحراق كتاب رديء. هذا كلّ شيء!» وما إن نطقتْ عبارة «هذا كلّ ما في الأمر» حتّى انفجر صديقنا الشابّ بضحكةٍ عجز عن ردّها لم تدُم أكثر من ثانية واحدة، ولكنّها لفتت نظراتها إليه. التقت عيناه بعينيها، وإنْ لم يكن ذلك لوقتٍ يكفي لمساعدته على فهمها. وإذا كانت تلك خطوةً إلى فهمها فقد أدرك على الفور أنّ ذلك الكتاب المحترق -على النّحو الذي لمّحت به إليه!- قد يكون أحد أروع أعمال زوجها.

«كتاب رديء؟»، كرّرَ مُحادِثها.

«لم أحبّه. لقد ذهب إلى الكنيسة لأنّ ابنتك ذهبت»، وجّهت جملتها الثانية إلى الجنرال فانكورت. «أظنّ أنّ من واجبي لفت انتباهك إلى تصرّفاته غير العاديّة مع ابنتك».

«طيّب، إذا لم تمانعي أنت، فلن أفعل أنا»، ضحكَ الجنرال.

«إنّه منضبط السلوك»[1]، ولكنّني لا أستغرب، فهي فاتنة جدّا».

---

(1) بالفرنسيّة في الأصل Il s'attache a ses pas.

«آمل ألاّ تجعله يحرق أيّ كتاب!»، قال پول أوڤرت بجرأة.

«إذا دفعته إلى أن كتابة القليل فسيكون هذا أكثر من المراد»، قالت السيّدة سانت جورج. «بات ميّالًا إلى الكسل مؤخّرًا..!».

حدّق صديقنا الشابّ، كان في غاية الصّدمة من استخدام السيّدة للمفردات. بدا قولها «كتابة القليل» مشابهًا لعبارتها «هذا كلّ شيء». ألم تكن تعلم، وهي زوجة فنّان نادر الوجود، ما يعنيه إنتاج عمل فنّيّ واحد مُتقَن؟ كيف تظنّ أنّ تلك الأعمال تُنجَز يا ترى؟ كان تصوره الشخصيّ هو أنّ هنري سانت جورج الفذّ، قد كتب في السنوات العشر الأخيرة، وفي الخمس الأخيرة تحديدًا، بشيءٍ من الإفراط، وقد مرّت عليه لحظةٌ أحسّ فيها بأنّه مدفوعٌ من داخله إلى التصريح بهذا الاعتقاد علنًا. ولكنْ قبل أن ينطق تغيّر مجرى الحديث بسبب وصول الغائبين. اقتربوا بخطوات ثقيلة متفرّقين -كان هناك ثمانية أشخاص أو عشرة- وأعادت دائرة المجتمعين تحت الأشجار ترتيب نفسها حين تبوّؤا أماكنهم فيها، لقد جعلوها أكبر، فبات في وسع پول أوڤرت أن يشعر -وكان يشعر بهذا الأمر دومًا، كما قال لنفسه- أنّه إذا كانت مراقبة ذاك الجمع أمرًا مثيرًا فإنّ الإثارة ستبلغ الآن درجةً عالية. صافح مضيّفته التي رحّبت به بكلمات قليلة مثل امرأة تثق في قدرته على الفهم وتدرك جيّدا أنّ مناسبة سارّة كهذه لَهِي في حدّ ذاتها أبلغ من أيّ كلام يمكن أن يقال، ولم تُبدِ اهتمامًا خاصًا به حين جلس بجانبها. وبعدما استقرّوا كلّهم من جديد اكتشف أنّه لا يزال يجاور الجنرال فانكورت، مع سيّدة مجهولة على جانبه الآخر.

«تلك هي ابنتي، في الجهة المقابلة هناك»، قال له الجنرال على الفور. رأى أوفرت فتاةً طويلة ذات شعر أحمر مذهل، ترتدي فستانًا بلونٍ فاتحٍ جميل بين الأخضر والرماديّ، وقماشٍ حريريّ منسدل، وهو ثوبٌ يضجّ في وضوح بكلّ آثار الموضة الحديثة. وقد بدا كأنّه يحمل، على نحو مّا، طابعَ أحدث الأشياء، حتّى إنّ مراقِبنا الشابّ اعتبرها، دون شكّ، ميّالة إلى المعاصرة.

«إنّها جميلة جدّا، جميلة جدّا»، كرّرَ وهو ينظر إليها. ثمّة شيء من الهيبة في رأسها، وقد بدتْ هي قويّةً ونضرة.

رمقها أبوها الطيّب بنظرة رضًى، ثمّ قال بعد لحظات: «تبدو كأنّها تعاني من حرارة الطقس، وذلك بسبب قدومها مشيًا. ولكنّها سرعان ما ستكون بخير. وسأطلب منها الاقتراب للتحدّث إليك».

«سأشعر بالأسف لأنّني سأكلّفك هذا العناء. لو رافقتني إلى هناك...!» تمتم الشابّ.

«سيّدي العزيز، هل تظنّ أنّني سأضيق بالأمر؟ لن أفعلها من أجلك، سأفعل ذلك من أجل ماريان»، أضاف الجنرال.

«سأتفرّغ لها بعد قليل»، أجاب أوفرت؛ ثمّ تابع كلامه: «هلا تفضّلت وأخبرتني أيّ هؤلاء السادة هنري سانت جورج؟».

«الرجل الذي يتحدّث إلى ابنتي. بحقّ جوبيتر، إنّه يتودّد إليها حقّا، سيبتعدان لنزهة أخرى».

«آه، هل ذاك هو... حقّا؟»، أحسّ صديقنا بمفاجأة حقيقيّة، إذ

بدا الشخص الذي أمامه لا يفعل شيئا أكثر من تعكير صورة غامضة لأنّها لم تتحوّل بعدُ إلى واقع. وما إن بدأ الواقع يطغى على الصورة المُتخيَّلة حتّى صارت تنهيدة الاستغراب ضروريّة بما يكفي كي يدرك المرء أنّه أمام خطإ طفيف. أوڤرت الذي قضى شطرًا كبيرًا من حياته القصيرة في بلاد أجنبيّة أبدى الآن، وإنْ لم تكن تلك هي المرّة الأولى، انطباعًا يشير إلى أنّه حين عاش في تلك البلدان كان يعرف على الدوام تقريبًا الفنّانَ والأديب من «سماته» الشخصيّة؛ قسمات وجهه، شكل رأسه، تفاصيل جسده بل حتّى من انتقاء ثيابه. أمّا في إنكلترا فالأمر لا ينطبق على الواقع إلاّ في أضيق الحدود، وذلك بسبب عادة غالبة تتمثّل في إخفاء المهنة بدلا من إظهارها، إنّه أمر عام شائع بالنسبة إلى الجنتلمان، الجنتلمان الذي لا يُلزِم نفسه بمجموعة أفكار محدّدة. ولأكثر من مرّة، بعدما عاد إلى بلاده، كان يقول لنفسه عن الناس الذين يلاقيهم في المجتمع: «إنّ المرء لَيَراهم في هذا المكان أو ذاك، بل قد يتبادل معهم الأحاديث، ولكنّه لو أراد اكتشاف مهنهم لَكان عليه أن يتحوّل بالفعل إلى مُحقِّق». فإذا تعلّق الأمر بعدّة أشخاص تكون أعمالهم بعيدة عن «إثارة اهتمامه» -ولعلّه كان مخطئًا في هذا- فقد وجد نفسه يضيف: «لا عجب أنّهم يُخفون مهنهم، لأنّها سيّئة جدّا!». ولاحظَ أنّ فنّانه كان يبدو، على نحوٍ أكثر ممّا هو عليه في فرنسا أو ألمانيا، أقرب إلى جنتلمان -إنكليزيّ تحديدًا- ولكن، ماعدا استثناءات نادرة حقّا، لم يكن جنتلمانه يبدو إطلاقا مثل فنّان. لم يكن سانت جورج أحد تلك الاستثناءات، وقد أدرك هذه السّمة بكلّ تأكيد قبل أن يعود الرجل العظيم من نزهته برفقة الآنسة فانكورت.

والحقّ أنّه كان يبدو من الخلف أفضل من أيّ أديب أجنبيّ، إذ يبدو مهيبًا على نحو جميل بقبّعته الرسميّة العالية السوداء ومعطفه الراقي مشقوق الذيل. على نحو مّا كانت هذه الثياب ذاتها-وهي ثياب ما كان له أن يتأفّف من ارتدائها حتّى في يوم عاديّ من أيّام الأسبوع- مُزعِجةً بالنسبة إلى پول أوڤرت الذي نسي في تلك اللحظة أنّ «رأس الكتّاب» لم يكن متأنّقًا ولو بزيادة طفيفة عنه هو بالذات. التقطَ لمحةً من وجه عاديّ؛ لونٌ نضر، شارب بنّيّ وعينان لم تشتعلا أبدًا بجنون الإبداع، ووعد نفسه بأن يدرس تلك الملامح في أوّل فرصة. وكان إحساسه الأوّليّ يُنبئه بأنّ صاحبها يبدو أقرب إلى سمسار بورصة ناجح، جنتلمان ينطلق شرقًا كلّ صباح من ضاحيةٍ نظيفةٍ في عربةٍ صغيرةٍ عمليّةٍ بدولابين. وقد تواصل هذا الانطباع الذي تولّد بالأساس من لقاء زوجته. انتقلت نظرات پول، بعد لحظة، عائدةً إلى هذه السيّدة، وانتبه إلى أنّ نظراتها كانت تلاحق زوجَها وهو يتنزّه مع الآنسة فانكورت. وقد سمح أوڤرت لنفسه بأن يتساءل عمّا إذا كانت تشعر بالغيرة حين ترافقه امرأةٌ أخرى. ثمّ أدرك أنّ السيّدة سانت جورج لم تكن ترمق الآنسة الغافلة، بل إنّ عينيها استقرّتا بهدوء جليّ على زوجها وحده. تلك هي الحال التي تريده أن يكون عليها، كانت تحبّ لباسه الرسميّ. وكان بأوڤرت توقٌ إلى أن يسمع أكثر عن الكتاب الذي حثّته على إتلافه.

2

ما إن خرجوا كلّهم من تناول الغداء حتّى أوقفه الجنرال فانكورت بإحدى يديه وبادرَه: «أقول، أريد منك أن تتعرّف إلى ابنتي!»، كما لو أنّ الفكرة خطرت له في تلك اللحظة ولم يكن قد تحدّث عنها من قبل، وجذب باليد الأخرى السيّدةَ الصغيرة بمنتهى الحنان الأبويّ: «تعرفين كلّ شيء عنه. لقد رأيتكِ مع كتبه. إنّها تقرأ كلّ شيء، كلّ شيء!»، واصل حديثه مع پول. ابتسمت الفتاة له ثمّ ضحكت من عبارة أبيها. وابتعد الجنرال فقالت ابنته: «أليس أبي طيّبًا؟».

«هو حقًّا كذلك، آنسة فانكورت».

«كأنني قرأتك، لأنني أقرأ «كلّ شيء»!».

«أوه، لا أعني هذا بسبب ما قاله»، ردّ پول أوڤرت. «أحببته منذ اللحظة التي تعامل فيها معي بلطف. ثمّ وعدني بهذا الامتياز».

«لم يكن قد فعل ذلك من أجلك، بل من أجلي. ولو أوهمت نفسكَ بأنّه قد يفكّر في شيء آخر سواي في هذا العالم لكنتَ مخطئًا. إنّه يقدّم الجميع لي. يحسبني نهمة».

«تتحدّثين مثله تمامًا»، قال فتانا ضاحكًا.

«آه، ولكنّني أرغب في ذلك أحيانًا». وتورّد وجه الفتاة. «لا أقرأ كلّ شيء، نادرا مّا أقرأ. ولكنّني قرأتك حقّا».

«هل يمكن أن نذهب إلى البهو»، قال پول أوڤرت. لقد أسعَدَتْه كثيرًا، لا بملاحظتها الأخيرة فقط -مع أنّها، بطبيعة الحال، لا تزعجه إطلاقا- بل لأنّها أتاحت له، وهي تجلس قبالته أثناء الغداء، فرصة تأمّل وجهها الجميل نصف ساعة، مع شيء آخر رافق ذلك، هو الإحساس بالسّماحة، وبحماس لم يكن، على خلاف حماسات كثيرة أخرى، مجرّد سلوك لطيف. ولم يتعكّر هذا الإحساس عنده حينما أدّت وجبة الغداء إلى تواصلها الودود مرّة أخرى مع هنري سانت جورج. فبسبب جلوسه إلى جانبها كان هذا الكاتب الشهير مقابلًا لصديقنا الشابّ أيضًا، وقد كان قادرًا على ملاحظة أنّه ضاعف اهتمامه بالرجل بفعل عبارة زوجته علاوةً على الملاحظة التي أبداها الجنرال. وكان پول أوڤرت قد أدرك أيضًا أنّ هذه السيّدة لا تضايقها على الأقل تلك الحميميّة المفرطة، فقد كانت تُعبّر دومًا عن رضًى صافٍ لا يعكّره شيء. كان اللورد ميشَمْ يجاورها من جهة، ومن الجهة الأخرى السيّد مَلينر، رئيس التحرير المرموق بجريدة المساء الجديدة النشيطة الموجَّهة إلى الطبقة العليا، وكان يُراد منها تلبية حاجة بات يمكن تلمّسها في تلك الدوائر التي صارت واعيةً أكثر بوجوب أن تصبح النزعة المحافظة أكثر إمتاعًا، وهي دوائر يصعب على أيّ طيف سياسيّ مغاير إقناعها بأنّ تلك النّزعة لطالما كانت ممتعة على نحو كاف. وإثر انقضاء ساعة برفقتها أحسّ پول أوڤرت أنّها أجمل حتّى ممّا تركه الانطباع الأوّل. ولولا ما كان في ملاحظتها من احتقار لعمل

زوجها مازال يعكّر ذاكرته لكان قد أحبّ تلك السيّدة أكثر - بقدر ما يكون هذا الحبّ مرتبطًا بتواصل مع امرأة لم يتحدّث إليها بعد، بل إنّه على الأرجح لن يتحدّث إليها يومًا لو كان الأمر بيدها. كانت النسوة الجميلات ضرورةً ملحّة لعبقريّته، وعلى امتداد تلك الساعة كانت الآنسة فانكورت قد أشبعت تلك الرغبة، ولو أنّ أوفرت منّى نفسه بتواصلٍ أقرب لباتت الفرصة الآن سانحة جدًا، وقد تداعت معها ظروف استشعر الشابّ أهميّتها. تمعّن في وجه سانت جورج أكثر، وقد أحبّه أكثر لأنّه لم يكشف عن ملامحه الحقيقيّة في الدقائق الثلاث الأولى. لقد بدأت القصّة تتّضح كما لو أنّ المرء يقرؤها في أجزاء قصيرة -يبدو من المبرَّر أن تكون تشبيهات المرء من صلب مهنته- وكان النصّ مسكونا بأسلوب يعتمد بقوّة على المعاني الضمنيّة، ولغةٍ لا تسهل ترجمتها بمجرّد النظر، ففيها ظلال معنى ومنظور تاريخي غامض يتكشّف كلّما تمعّنت فيه. ثمّة حقيقتان قدّرهما پول بشكل خاصّ؛ أولاهما أنّه أحبَّ القناع الذي يسيطر به على مشاعره في لحظات الاسترخاء الغامض أكثر من لحظات الجيَشان الاجتماعيّ؛ كان أكثر ما أزعجه هو ابتسامته المتشنّجة (بقدر ما كان يتطلّبه أي تعبير من ذلك المصدر)، بينما كان للوجه المسترخي سحرٌ يتنامى شيئا فشيئا مع استتباب الهدوء من جديد. وكان تغيُّر التعبير عن السعادة، كما لاحظَ ذلك، يثير احتجاجًا داخليًّا قويًّا لشخص يجلس بامتنان في الشفق بينما كان المصباح يضيء في الحال. وكان الانطباع الثاني، على الرغم من نفوره عمومًا من استخدام فنون التملّق استخدامًا فاضحًا على يد رجل مسنّ «يتودّد» إلى فتاة جميلة، أنّه لم يبدُ شديد الانزعاج في

هذه الحالة، وقد برهن هذا إمّا على أنّ سانت جورج شديد الرقّة أو أنّه أصغر مما يبدو، أو من ناحية أخرى أنّ سلوك الآنسة فانكورت جعل كلّ شيء يبدو مستساغًا. مشى أوڤرت برفقتها إلى البهو، وذرَعاه حتّى نهايته، متأمّلين اللوحات، والخزائن، والأفق الساحر الذي كان متناغمًا مع مشهدِ عصرِ يوم صيفيّ، ومتماثلًا مع سطوعه المديد، وكذلك الدّيوانات الكبيرة والكراسي القديمة التي تُغري بساعات من الاسترخاء. كانت لمثل هذا المكان تلك الميزة الإضافيّة في منح مَنْ يدخلون إليه فسحةً للتحدّث عنه. وجلست الآنسة فانكورت مع معرفتها الجديدة على أريكة مزهَّرة، كانت وسائدها، وهي كثيرة جدًا، مكعّبات قديمة ضيّقة بأحجام عديدة، وقالت على الفور: «أنا سعيدةٌ جدًا إذ سنحت لي فرصة أن أشكرك؟».

«كي تشكريني..؟»، كان عليه أن يستغرب.

«أحببت كتابك جدًا. أظنّ أنّه مذهل».

جلست هناك تبتسم له، ولم يسأل نفسه مطلقا عن الكتاب الذي تعنيه؛ فكلّ ما ألّفه، في نهاية المطاف، ثلاثة كتب أو أربعة. بدا هذا تفصيلًا تافهًا، مع أنّه لم يكن قد أحسّ بالرضى إطلاقا أمام فكرة السعادة التي أخبرته بأنّه -كما ينبئه وجهها الجميل المتألّق- منحها إيّاها. فالإحساس الذي أومأت إليه، أو الإحساس الذي غمرها في جميع الأحوال، كان شيئًا أكبر، شيئًا ذا صلةٍ ضعيفة بأيّ نبض متسارع لغروره. كان إعجابًا يعكس الحياة التي تجسّدها، النّقاء والغنى الفتيّ اللذين بدوَا كأنّهما يُضمران أنّ النجاح الحقيقيّ يعني أن تشبه هذا، أن

تعيش، أن تُزهر، أن تُقدّم النموذج الأوفى من الروعة، لا أن تُحطّم الخيالات التي يصيب الرأسَ منها تدويمٌ عبر الانكباب من جديد على طاولة مبقّعة بالحبر. وبينما استقرّت نظرات عينيها الرماديّتين عليه-كانت هناك مساحة واسعة بينهما، وفوقهما مفرق شعرها الصافي اللون، الشعر الكثيف إلى حدّ السّلاسة، قد رسم قوسًا حرّا- كان على وشك الإحساس بالخجل بسبب عمل ذلك القلم الذي كان هو بالذات سبب إطرائها. وكان يدرك أنّه يميل أكثر إلى إسعادها بوسيلة أخرى. بدت قسمات وجهها قسمات امرأة ناضجة، ولكنّ الطّفولة لم تزل حاضرةً في بشرتها وفي عذوبة فمها. وفوق كلّ ذلك كانت طبيعيّةً، لم يعد هناك من شكّ في هذا الآن؛ أكثر ممّا ظنَّ في البداية، ربّما بسبب ثوبها الجميل الذي بدا غير مألوف على نحو مألوف، مُوحيًا بما يمكن أن يسمّيه عفويّةً ملتوية. كان يخشى مثل هذه الأشياء في حالات أخرى، وكانت مخاوفه مبرَّرة؛ فعلى الرغم من كونه فنّانًا حتّى النخاع، فإنّ تلك الحوريّة الحديثة ذات المظهر التقليدي، بجميع تلك النباتات البريّة التي رآها في ثنايا جسدها وبشعرها الأشعث كما لو أنّ مخلوقات السّاتير الأسطوريّة قد عبثت به- جعلته ينكمش ليس كرجل يرتدي جلدًا خفيفًا لامعًا ولكن كشاعر أو حتى راع للحقول أو إله للغابات. كانت الفتاة أكثر نقاءً مما توحي به ثيابها حقّا، والدليل الأفضل على هذا هو افتراضها أنّ شخصيّتها المتحرّرة تتناسب مع أيّ ثياب. وتلك كانت مغالطة، فعلى الرغم من قناع التّشاؤم الذي ألبسوها إيّاه كان واثقًا من أنّها تحبّ طعم الحياة. شكرها على مجاملتها،حذِرا في الوقت ذاته من ألاّ يبدو مُفرطًا في الشّكر حتى لا تظنّه جاحدًا. كان يخشى

أن تطلب منه تفسير أمر مّا في كتاباته، وهو يجفل من هذا الأمر دومًا -على نحو مبالَغ فيه ربّما- فتفسير العمل الفنيّ بالنسبة إليه ليس أكثر من حماقة. ولكنّه أحبّها كثيرًا إلى حدّ الاطمئنان للثقة بأنّ عليه أن يكون، في المدى البعيد، قادرًا على أن يُظهر لها أنّه لم يكن يتملّص بوقاحة، وعلاوةً على هذا بدا من الواضح أنّها لا تُبالغ في الشعور بالإهانة، فلم تكن انفعاليّة نزقة، بل يمكن للمرء أن يطمئنّ إلى سعة صدرها، لذا حين قال لها: «أوه، لا تتحدّثي عن أيّ شيء أنجزتُه، لا تتحدّثي عنه هنا؛ ثمّة رجل آخر في المكان هو الحقيقة بعينها!»، حين نطق بهذا الاحتجاج القصير الصريح كان يدرك أنّها لن تجد في الكلمات تواضعًا هازئًا أو نزقَ رجلٍ ناجح يضجره المديح.

«تعني السيّد سانت جورج، أليس لطيفًا؟».

نظر پول أوڤرت إلى عينيها اللّتين حمَلتا نور صباح رقيق كان سيكسر قلبه نصفين لو لم يكن شابّا بهذا العمر. «لا أعرفه للأسف. أحترمه على ما بيننا من مسافة».

«أوه، لا بدّ أن تتعرّف إليه، هو يتوق إلى التحدّث إليك»، ردّت الآنسة فانكورت. وكان من الواضح أنّ لديها عادة قول الأشياء التي يمكن، بتمعّنها السريع، أن تمنح السعادة للآخرين. لاحظَ پول كيف أنّها تركّز دومًا على كلّ ما يكون سلسًا بين الآخرين.

«لم أكن أفترض أنّه يعرف أيّ شيء عنّي»، قال معترفًا.

«إنّه يعرف إذن، كلّ شيء. ولو لم يكن يعرف لكنتُ بادرت إلى إخباره».

«أن تخبريه بكلّ شيء؟»، قال صديقنا مبتسمًا.

«أنت تتحدّث كما تتحدّث الشخوص في كتابك!»، أجابت.

«إذَن لا شكّ أنّهم يتحدّثون كلّهم هكذا».

فكّرت لحظة، من دون أدنى ارتباك. «حسنًا، لا شكّ أنّ الأمر صعب جدًا. قال لي السيّد سانت جورج إنّ الأمر صعب، بشكل رهيب. لقد حاولتُ أنا أيضًا، ووجدته كذلك، حاولتُ كتابة رواية».

«لم يُثْنِكِ السيّد سانت جورج عن فعل هذا»، اندفع پول في كلامه.

«أنت تفعل ما هو أكثر من ذلك، حين تُبدي هذا التّعبير».

«طيّب، في النهاية، لمَ تحاولين أن تكوني فنّانة؟» تابع الشابّ كلامه. «إنّه أمر بائس، بائس جدًا!».

«لا أعلم ما تعنيه»، قالت الآنسة فانكورت برصانة.

«أعني لو قارنّاه بأن تكوني شخصًا عمليًا، أن تعيشي أعمالك».

«ولكن ما الفنّ إن لم يكن حياةً كثيفة، إذا كان بالفعل فنًّا حقيقيًا؟» سألت. «أظنّ أنّه الأمر الحقيقيّ الوحيد، كلّ ما عداه سمج جدًا!»، ضحك مُحاوِرُها، أمّا هي فقد أثارت بصفائها السّاحر فكرة أدهشتها بعد ذلك، «من الممتع جدًا لقاء أناس كثيرين مشهورين».

«هذا ما ينبغي أن أعتقده أيضًا، ولكن من المؤكّد أنّه ليس جديدًا عليكِ».

«أوه، لم يسبق لي أن لقيت أحدًا منهم، أيّ أحد، عندما كنتُ أعيش في آسيا طوال حياتي».

كانت الطريقة التي تحدّثت بها عن آسيا قد سحرته على نحو مّا. «ولكن ألا تعجّ القارّة بشخصيّات عظيمة؟ أليست لديكم مقاطعات إداريّة في الهند وحكّام أسرى وأمراء تابعون مربوطون بعربتك؟».

بدت كأنّها لا تكترث حتّى وهو يستمتع بالسخرية منها.

«كنتُ مع أبي، بعد أن أنهيت الدراسة وذهبت إلى هناك. كان من الممتع أن أكون معه، كنا وحيدين معًا في العالم، هو وأنا -ولكنْ لم يكن هناك أحد في المجتمع يمكن أن يثير اهتمامي. لا يسمع المرء عن اللوحات إطلاقا، أو عن الكتب، ما عدا الرديئة».

«لا يسمع عن اللوحات إطلاقا؟ لماذا، ألم تكن الحياة كلّها لوحة؟».

قلّبت نظراتها في أرجاء المكان الساحر حيث يجلسان. «لا شيء يمكن أن يُقارَن بهذا. أنا أعبد إنكلترا!»، هتفت به.

أصابته هذه العبارة على الوتر المقدّس تمامًا. «آه، بطبيعة الحال، لا أنكر أنّ علينا فعل شيء لها، عزيزتنا العجوز المسكينة».

«هي لم تُحَسّ حقّا بعد»، قالت الفتاة.

«هل قال السيّد سانت جورج ذلك؟».

كانت في سؤاله، كما بدا له، لمحة صغيرة من السخرية غير المؤذية؛ ولكنّ الفتاة أجابت، بطبيعة الحال، في بساطة متناهية من دون أن

تنتبه إلى التلميح. «نعم، هو يقول إنّ إنكلترا لم تُحَسّ، لم يُتمعَّن في كلّ ما فيها»، تابعت كلامها بحماس. «هو شديد الاهتمام ببلادنا، والإنصات إليه يجعل المرء راغبًا في فعل شيء مّا».

«إنّه يجعلني أرغب في ذلك»، قال پول أوڤرت، وهو يستشعر بقوّةٍ، وبشكل مباشر، ما في قولها وما في العاطفة التي نطقت بها العبارةَ من إيحاء، وأدرك تمامًا ما يحفل به مثل هذا الكلام من تحفيز إذا خرج من بين شفتي سانت جورج.

«أوه أنت، كأنّك لم تفعل شيئًا! كم أودّ أن أُنصت إليكما تتحدّثان معًا»، أضافت بحماس.

«هذا من كبير لطفك؛ ولكن لا شكّ أنّه لن يترك، بطريقته تلك، مجالًا لغيره. إنّي أنحني أمامه».

خيَّمَ جوٌّ من الجدّيّة على كلامها. «هل تظنّ أنّه مثالي جدًا؟».

«هو بعيد عن ذلك. بدت لي بعض كتبه الأخيرة على شيءٍ من الغرابة..!».

«نعم نعم، هو يعلم هذا».

حدّق پول أوڤرت. «أنّها تبدو لي على شيء من الغرابة..!».

«نعم، أو أنّها لم تكن في جميع الأحوال بالمستوى المنشود. قال لي إنّه لا يُشيد بقيمتها. لقد أخبرني بمثل هذه الأشياء الرائعة، إنه ممتعٌ جدًا».

أحسّ پول أوڤرت بشيء من الصدمة لمعرفة أنّ العبقريّ الرائع

الذي يتحدّثان عنه قد انحدر، يا لبؤسه، إلى مثل هذا الاعتراف الصّريح الذي باح به لأوّل وافد؛ فعلى الرغم من أنّ الآنسة فانكورت ساحرة فإنّها ليست في نهاية المطاف سوى فتاة غير ناضجة التقى بها في بيت ريفيّ! ولكنّ هذا بالذات كان جزءًا من المشاعر التي عبّر عنها هو نفسه: سيبرّر كليًّا ما فعله هذا الرجل العظيم المسكين غير المعصوم لا لأنّه لم يقرأه بوضوح، بل لأنّه قرأه بلا شكّ. كان قراره مبنيًا في جزءٍ منه على التعاطف مع التفاهات التي كان واثقًا من أنّ مُرتكبها قد حاسب ذاته عليها بينه وبين نفسه، حاسب ذاته بشراسة أشدّ من أيّ شخص آخر، وقد مثّلتْ شيئًا أشبه بسرّ ثقافيّ مأسويّ كان يمكن أن تكون له أسبابه من أجل نفسيّته المفرطة الحساسيّة[1]، ولا يمكن لتلك الأسباب إلاّ أن تكون قاسيةً، على نحو يدفعه إلى أن يكون أرقَّ مع مَنْ يبدون الإعجاب به أصلًا. «أنتِ تثيرين حسدي. لديّ تحفّظاتي، أعترف بهذا، ولكنّني أحبّه»، قال پول على الفور. «ورؤيته للمرّة الأولى على هذه الحال حدثٌ عظيم بالنسبة إليّ».

«يا للعظَمة، يا للرّوعة!»، صاحت الفتاة. «كَمْ سيكون حلوًا جمعكما معًا!».

«سيكون الأمر كاملًا إذا فعلت أنتِ ذلك»، ردّ صديقنا.

«هو متحمّس مثلك تمامًا»، تابعت كلامها، «ولكنْ من الغريب جدًا أنّكما لم تلتقيا».

---

(1) بالفرنسيّة في الأصل à fleur de peau، وللعبارة معانٍ مختلفة في الفرنسيّة، ولعلّ هذا المعنى هو الأقرب إلى السّياق.

«ليس هذا شديد الغرابة حتّى يصدمك هكذا. قضيتُ فترة طويلة خارج إنكلترا، تكرّر غيابي خلال هذه السنوات الأخيرة».

تلقّفت العبارة باهتمام. «ومع هذا فإنّك تكتب عنها ببراعة كما لو كنتَ دومًا هنا».

«لعلّ البُعد هو السّبب. وعلى أيّة حال، فإنّ أفضل ما لدي، في ما أظن، كُتب بأماكن موحشة في الخارج».

«ولِمَ كانت موحشة؟».

«لأنّها مصحّات استشفاء، حيث كانت أمّي المسكينة تحتضر».

«أمّك المسكينة؟»، جاء سؤالها مفعمًا بالعذوبة.

«ذهبنا من مكان إلى آخر كي نساعدها على التعافي. ولكنّها لم تتحسّن إطلاقًا؛ إلى الريفيرا القاتلة (كم أكرهها!) إلى قمم الألب، إلى الجزائر، وبعيدًا بعيدًا -في رحلة شنيعة- إلى كولورادو».

«ولم تتحسّن حالها؟»، تابعت الآنسة فانكورت تساؤلها.

«توفّيت منذ عام».

«حقًا؟ مثل أمّي! الفارق هي أنّها توفيت منذ بضع سنوات. لا بدّ أن تخبرني يومًا عن أمّك»، أضافت.

عجز، للوهلة الأولى، عن فعل أيّ شيء باستثناء التحديق فيها. «يا للكلمات المناسبة التي تنطقينها! لو قلتِها لسانت جورج فلن أستغرب أن يتعذّب».

صدمتها العبارة لحظة. «لا أعلم ما تعنيه. هو لا يلقي خطابات أو يبوح باعترافات على الإطلاق، هو ليس سخيفًا».

«أخشى أنّكِ تعتبرينني سخيفًا إذن».

«لا، إطلاقا»، قالتها بشيء من السرعة، ثمّ أضافت: «هو يتفهّم، يفهم كلّ شيء».

كان الشابّ على وشك أن يقول مازحًا: «وأنا لا أفهم، أليس كذلك؟» ولكنّ هذه الكلمات تحوّلت بمحض إرادتها، في الوقت المناسب، إلى أخرى أقلّ تفاهةً: «هل تعتقدين أنّه يفهم زوجته؟».

لم تردّ الآنسة فانكورت بإجابة مباشرة، ولكنّها قالت بعد لحظة تردّد: «أليست فاتنة؟».

«لا، إطلاقا!».

«ها قد جاء. يجب أن تتعرّف إليه الآن»، تابعت كلامها. كان حشد صغير من الزوّار قد تجمّعوا في نهاية البهو الآخر، وقد سبقوا هنري سانت جورج، ودخل هو إلى البهو خارجًا من غرفة مجاورة. وقف على مقربة منهم لحظة، من غير أن يشارك في الحديث، بل حمل منمنمةً قديمةً من إحدى الطاولات وبدأ يتأمّلها بغموض. وبعد دقيقة انتبه إلى وجود الآنسة فانكورت ومرافقها من بعيد؛ وفي الحال، أعاد منمنمته إلى مكانها، واقترب منهما بالخطوات الوئيدة المماطِلة ذاتها، يداه في جيبيه ونظراته تتنقّل، يمنةً ويسرة، على اللوحات. كان البهو طويلًا جدًا فاستغرق وصوله بعض الوقت، لاسيّما أنّه توقّف

للحظات كي يتأمّل لوحة غينزبره[1] الرائعة. «يقول إنّ السيّدة سانت جورج كانت وراء ما بلغه من مكانة»، تابعت الفتاة كلامها بصوت أقلّ خفوتًا.

«آه، هو غامض في غالب الأحيان!» قال پول ضاحكًا.

«غامض؟»، كرّرت، كما لو أنّها تسمع الكلمة للمرّة الأولى. واستقرّت عيناها على صديقها الآخر، ولم يفت پول أن ينتبه إلى أنّهما بدتا كأنّما تطلقان أشعّة رقّة هائلة. «سوف يتحدّث إلينا!»، تنهّدت بشغف. كان ثمّة شيء من الاختناق في صوتها، وبُوغِت صديقنا. «فلتُرحَم روحي، هل تهتمّ به إلى هذا الحدّ؟، هل هي مغرمة به؟»، قلّب السؤال في ذهنه. «ألم أقل لك إنّه متحمّس؟»، سألَتْه في تلك اللحظة.

«إنّه حماس خفيّ»، ردّ الشابّ، فيما كان موضوع اهتمامه يُبطئ خطواته أمام لوحة غينزبره. «هو يتقدّم نحونا بخجل. هل يعني أنّها أنقذته بإحراق ذلك الكتاب؟».

«ذلك الكتاب؟ أيّ كتاب أحرقته؟»، أدارت الفتاة وجهها بسرعة نحوه.

«ألم يخبرك بهذا؟».

«ولا كلمة».

---

(1) توماس غينزبره Thomas Gainsborough (1727 - 1788): فنان إنجليزي، اعتبر من أهم الفنانين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

«هو لا يخبرك بكلّ شيء إذن!»، خمّنَ پول أنّها تحسبه يخبرها بكلّ شيء حقّا. تابع الرجل العظيم طريقه الآن ودنا منهما؛ ومع هذا فقد خاطرَ معجبُه الأكثر جدارةً ونطق بملاحظة مبتذلة: «سانت جورج والتنّين، هذا ما توحي به الطّرفة!».

ولكنّ مرافقته لم تسمع العبارة على أيّة حال؛ ابتسمت مع اقتراب خصم التنّين. «إنّه متحمّس، إنّه كذلك!»، كرّرت بإصرار.

«متحمّس إليك، نعم».

ولكنّها هتفت في هذه اللحظة: «واثقةٌ من أنّك تودّ التعرّف إلى السيّد أوڤرت. ستصبحان صديقين حميمين، وسيكون من المُبهج لي دومًا تذكّر أنّني كنتُ موجودةً في لقائكما الأوّل وأنّ لي علاقة به».

كانت هناك نيّة لا تخلو من حماس في الكلمات التي عرّفت بينهما؛ ومع هذا كان صديقنا الشابّ يشعر بالأسف تجاه هنري سانت جورج، كما يشعر بالأسف دومًا تجاه أيّ شخص يُدعى علنًا كي يُبدي التجاوب والسعادة. كان سيتأثّر أيّما تأثّر لو أيقن أنّ رجلًا يُجلّه بعمق يكترث ولو قدر قشّة لوجوده، لكن ينبغي له ألاّ يأمل كثيرًا، إذ قد تكون هذه الفرضيّة مجرّد وهم. في لمحةٍ سريعةٍ من عين المعلّم المعذور قرأ -مستعينًا بذلك الإلهام الراجع إلى موهبته- أنّ هذا المشهور يملك سعةً دائمةً من صبر ودود كان تكملة لمظهره الباذخ، ولكنّه لم يكن ليعلم أدنى شيء عن أيّ صفحةٍ مطبوعةٍ لمُخرِبشٍ صاعد. كان هناك ما يدعو إلى الارتياح، إلى البساطة، في ذلك: إذ كيف له أن يتأثّر بمجرّد انطباع يظلّ في أفضل الأحوال ضبابيًا وهو

الذي طالما أحبّ هذا الرّجل لكلّ ما حقّقه في السابق من إنجاز؟ نهض پول أوڤرت محاولًا إظهار الحنوّ، ولكنّه وجد نفسه في الوقت ذاته مغمورًا بفنّ سانت جورج الشخصيّ المبهج، وقد كان هذا هو الجوهر الكفيل بتبديد كلّ الأفكار الزّائفة. حدث كلّ هذا خلال لحظة. كان پول مدركًا أنّه يعرفه الآن، واعيًا بمصافحته وبما في يده ووجهه من قيمة حقيقيّة، وهو يراه عن قرب، وعلى نحو أفضل، وبإمكانه على الأقلّ أن يتأكّد من أنّ سانت جورج، من خلال طريقة حديثه الأخويّة والمطمئنة، لا ينفر منه (على الأقلّ حتّى الآن) وهو الذي فرضته عليه فتاة فاتنة ولكنْ شديدة الاندفاع، جذّابة بما يكفي من غير حاجةٍ إلى مثل هذه التوابع. لم يبدُ أيّ انزعاج في الصوت الذي سأل به الآنسة فانكورت عمّا إذا كانت تودّ الذهاب إلى نزهة، نزهة عاديّة حول الحديقة. وسرعان ما قال شيئًا لپول يخصّ الحديث: «لا بدّ أن يكون لدينا كمٌّ هائل من الحديث؛ ثمّة أمور كثيرة نتحدّث عنها، أليس كذلك؟»، ولكن كان بوسع صديقنا أن يدرك أنّ هذه الفكرة لن تترك أثرًا فوريًّا في الوضع الحالي، ومهما يكن من أمر فقد كان في أقصى لحظات سعادته، حتّى بعد أن حُسم موضوع النزهة. وعاد الثلاثة الآن إلى نهاية البهو الأخرى، حيث نوقشت النزهة بين آخرين عديدين في الحفلة، بل إنّه كان سعيدًا عندما وجد نفسه، بعد أن خرجوا كلّهم معًا، يجتمع نصف ساعة بالسيّدة سانت جورج من جديد. كان زوجها قد تقدّم الجميعَ برفقة الآنسة فانكورت، وغاب الاثنان عن الأنظار الآن. كانت الجولة الأجمل في ذلك العصر الصيفي، وكانوا محاطين، على مدى فسيح، بالعشب الذي يرسم حدود الحديقة

من الداخل. كانت الحديقة محاطةً من الجهات كلّها بسورها القديم المزخرف، بلونه الأحمر الصافي، وكان في حدّ ذاته يمثّل، على امتداد الطريق من يسارهم، موضعَ مسرّة. حدّثته السيّدة سانت جورج عن أعداد الفدادين المدهشة التي يضمّها العقّار، وحقائق أخرى كثيرة عن البيت والعائلة، وعن ممتلكات أخرى للعائلة، ولم يكن في وسعها أن تحثّه بقوّةٍ على أهميّة رؤية البيوت الأخرى. ومضت تستعرض أسماءها وتخبره بالتغيّرات التي طرأت عليها بسلاسة، وجعلتها تبدو كلائحة لا تكاد تنتهي. لقد استقبلت پول أوڤرت بحفاوةٍ كبيرة مقدّرةً إعرابه عن ابتهاجه بالتعرّف على زوجها، وصدمته بكونها امرأة شابّة شديدة اليقظة ودائمة المجاملة على نحوٍ أحسّ معه بشيءٍ من الخجل ممّا اقترفه في حقّها من نميمة أمام الآنسة فانكورت، مع أنّه كان واثقًا من أنّ مئة شخص آخر، في مئة مناسبة أخرى، كانوا سيقعون في تلك النميمة حتمًا. وانسجم مع السيّدة سانت جورج بأفضل ممّا كان يتوقّع، ولكنّ هذا لم يمنعها من أن تحسّ فجأةً بأنّها تكاد تسقط من فرط الإرهاق وأنّ عليها العودة إلى البيت عبر أكثر الطرق اختصارًا. اعترفت بأنّها لا تملك قوّة هُريرة صغيرة وبأنّها مجرّد حطام بائس، وتلك سمة كان غافلًا جدًا عن ملاحظتها وهو يقلّب في ذهنه معنى أن تكون هذه المرأة هي التي صنعت مكانة زوجها. كان قد وصل إلى طرف خيط الإجابة عندما صارحته بأنّها مضطرّة إلى تركه، مع التأكيد على أنّ ذلك وضع مؤقّت لفترة وجيزة. وبينما كان على وشك أن يعرض عليها خدمته فيرافقها في عودتها إلى البيت طرأ تغيير كبير على المشهد؛ ظهر اللورد ميشم فجأة، متّجهًا نحوهما، ثمّ

وقف أمامهما، مندفعًا من دغل الشجيرات -وكاد أوڤرت لا يتمكّن من معرفة كيفيّة ظهور الرجل- وردّت السيّدة جورج بأنّها تريد أن تنعزل قليلًا لئلاّ تفسد الحفلة. وبعد لحظة كانت تعود رفقة اللورد ميشم، وعاد صديقنا أدراجه وانضمّ إلى الليدي ووترماوث التي قال لها بشكل صريح إنّ السيّدة سانت جورج اضطرّت إلى التوقّف وعدم إكمال النّزهة.

«ما كان ينبغي لها أن تخرج أصلا»، ردّت حضرتها بشيء من الانزعاج.

«هل هي دائمة التّعب هكذا؟».

«حالتها سيّئة فعلًا». ثمّ أضافت مضيّفته بعبوس أكبر: «ما كان ينبغي لها أن تأتي إلى الحفلة!». وتساءل عمّا تُضمره هذه العبارة، واستشفّ على الفور أنّها ليست انعكاسًا لسلوك السيدة أو طبيعتها الأخلاقيّة؛ إنّها لا تعبّر إلاّ عن كون قوّتها لا توافق طموحاتها.

3

كانت غرفة التدخين في سمرسوفت تُعادِل بقيّة المكان؛ كانت فسيحةً بسقفٍ مرتفع وتعجّ بديكورات من نقوش وتماثيل قديمة رائعة، حتّى بدت أقرب إلى تعريشة تجلس فيها النساء كي يعملن في غزل الصوف منها إلى برلمان للسادة الذين يدخّنون سيجارًا غليظًا. التقى السّادة هناك في حشدٍ كبير مساء يوم الأحد، مجتمعين في إحدى الزوايا، أمام واحدةٍ من المدافئ الجميلة الباردة، المصنوعة من رخام أبيض، وكانت حافّة رفّها العلويّ مُزيَّنةً بـزخارف إيطاليّة صغيرة أنيقة. وفي الجدار المقابل مدفأة أخرى، ولم تكن النّار متّقدة في أيّ منهما، لأنّها كانت ليلةً صيفيّة لطيفة، ولكنّ هناك ركنًا للجلوس قرب أحد جدران الغرفة عند طاولة تحاذي زاوية المدفأة تعجّ بالزجاجات والأباريق والأقداح الطويلة. لم يكن پول أوڤرت مدخّنا نمطيّا؛ فهو يدخّن سيجارة لأسباب لا علاقة للتّبغ بها، وكانت تلك هي الحال بالضبط في المناسبة التي أتحدّث عنها الآن؛ كان دافعه هو تحقُّق حلمه في حوار صغير مباشر مع هنري سانت جورج. فتبادل الأفكار «الهائل» الذي كان الرجل العظيم قد جعل صديقنا يعلّق آمالًا كبيرة عليه في النهار لم يكن قد حان بعد. وقد كدّره هذا التأجيل كثيرًا، فالحفلة ستنفضّ ويتفرّق أفرادها في الاتجاهات كلّها مباشرة بعد

الإفطار صباح الغد. كان مُثقَلًا بخيبة أمل، بطبيعة الحال، إذ اكتشف على ما يبدو أنّ مؤلّف رواية «شادومير»[1] لم يهيّئ نفسه لمواصلة السهر، فهو لم يكن موجودًا بين السادة المتجمّعين عندما دخل پول، ولا أحدَ الملتحقين بهم خلال الدقائق العشر التالية من الذين يرتدون ثيابًا زاهية. انتظر الشابّ برهة، متسائلا عمّا إذا كان الرجل قد تأخّر لأنّه يودّ ارتداء شيء مميَّز؛ كان هذا سيبرّر تأخّره علاوةً على إسهامه أكثر في تعزيز انطباع أوڤرت عن نزعته الدائمة إلى فعل الأمور الظاهرة المتّفق عليها في هذه الأوساط. ولكنّه لم يصل، لا شكّ أنّه مشغول بارتداء بذلة أكثر تميّزًا ممّا هو متوقَّع. تخلّى بطلنا عن فكرة انتظاره، شاعرًا ببعض الظلم والحرج، لضياع تلك الكلمات العشرين المرتقبة. لم يكن غاضبًا، ولكنّه نفث دخان سيجارته متنهّدًا، مع الإحساس بفقدان شيء مّا نادر، وتجوّل متأسّفًا في المكان بخطوات بطيئة حول الغرفة، متطلّعا إلى النقوش القديمة على الجدران، وبينما هو على هذه الحال شعر بيدٍ على كتفه وبصوتٍ ودود في أذنيه: «هذا جيّد، كنتُ آمل أن أجدك، وقد جئت لهذا الغرض». كان سانت جورج هناك بثيابه ذاتها التي لم يغيّرها وبوجه الودود، بتعابيره المنقوشة، وهو ما اختلج له صديقنا الشابّ. وقال إنّه من أجل المعلّم وحده -من أجل حديث صغير معه- بقي هنا، وإنّه، حين لم يجده، كان على وشك التوجّه إلى سريره لينام.

«طيّب، كما تعلم، أنا لا أدخّن، زوجتي لا تسمح لي بهذا»، قال

(1) شادومير Shadow-mere، ظلٌّ مجرّد، أو مجرّد ظل، ربما للإيحاء بأن مؤلّفها (أي سانت جورج) ليس أكثر من مجرّد ظل للفنان.

سانت جورج، وهو يبحث عن مكان ليجلس. «هذا جيّد جدّا لي، جيّد جدّا لي. لِنَنْبَذْ تلك الأريكة».

«هل تعني أنّ التدخين جيّد لك؟».

«لا لا، بل أعني عدم سماحها لي. إنّه لأمر جيّد أن تكون لك زوجة تهتمّ اهتماما دقيقا بجميع الأشياء التي يمكن للمرء الاستغناء عنها، فهو قد لا يكتشفها بنفسه. لا تسمح لي بأن أَقْرَبَ سيجارة واحدة». وصلا إلى الأريكة على مسافة من جماعة المدخّنين، وتابع سانت جورج كلامه: «هل حصلت على واحدة لك؟».

«هل تعني سيجارة؟».

«لا، يا إلهي، زوجة».

«لا، ومع ذلك فإنّني سأتخلّى عن سيجارتي من أجل زوجة».

«ستتخلّى عن أشياء أكبر من هذا»، ردّ سانت جورج. «وعلى أيّة حال، ستحصل على أشياء كبيرة في مقابل ذلك. لا بدّ من الاهتمام بالزوجات»، أضاف، شابكًا ذراعيه ومصالبًا ساقيه الممدودتين. تخلّى عن التبغ كليّا وجلس هناك، فتوقّف مُحادثه عن التدخين، متأثّرًا بلباقته؛ وبطبيعة الحال، كانا بعيدين عن الدّخان، بما أنّ أريكتهما كانت منزوية في ركن بعيد. وسيكون خطأً، خطأً كبيرًا بالنسبة إليهما أن ينزويا على هذا النّحو من غير أن يتبادلا محادثة صغيرة، وواصلَ سانت جورج كلامه: «فأنا أعرف عنك كلّ شيء»، قال، «أعلم أنّك ذو مكانة مرموقة كبيرة. لقد ألّفتَ كتابًا في غاية التميّز».

«وكيف عرفتَه؟»، سأله پول.

«ياه، يا صديقي العزيز، الأمر منتشر، وهو في الجرائد، في كلّ مكان». كان سانت جورج يتحدّث بألفة واضحة كما لو كان يحادث صديقًا، في نبرة بدت لمحادثه أشبه بحفيف إكليل غار. «أنت على ألسنة الرجال كلّهم، أو بالأحرى، على ألسنة النساء كلّهنّ. ولقد أنهيت الساعةَ قراءة كتابك».

«للتو؟، لم تقرأه هذا العصر»، قال أوفرت.

«كيف عرفت هذا؟».

«أظنّ أنّك تعلم كيف عرفت هذا»، قال الشابّ ضاحكًا.

«أظنّ أنّ الآنسة فانكورت أخبرتك».

«لا، صدقًا، بل جعلتني أفترض أنّك فعلت».

«نعم، هذا ما تفعله هي حقّا. ألا تنشر بريقًا ورديًا على الحياة؟ ولكنّك لم تصدّقها؟»، سأل سانت جورج.

«لا، ليس عندما اقتربتَ منّا هناك».

«هل كنتُ أتظاهر؟ هل تظاهري مكشوف؟»، ولكنّ سانت جورج واصل كلامه من غير أن ينتظر إجابةً: «ينبغي لك أن تصدّق دومًا فتاةً كهذه في كلّ ما تقول، دومًا، دومًا. لا بدّ أن تتعامل مع بعض النساء بالإباحة والتحفّظ؛ ولكن لا بدّ لك أن تتعامل معها كما هي».

«أستلطفها كثيرًا»، قال پول أوفرت.

بدا أنّ شيئا مّا في نبرته أثار في محدّثه إحساسًا عابرًا بعبثيّة الأمر؛ ربّما كان هذا بسبب نبرة التروّي التي رافقت تلك العبارة. انفجر سانت جورج مجيبًا بضحكة: «هذا أفضل ما بوسعك أن تفعله معها. إنّها سيّدة شابّة نادرة! وأنا في حقيقة الأمر أعترف بأنّني لم أقرأ كتابك هذا العصر بطبيعة الحال».

«أنت تدرك، إذن، كيف كنت محقًّا في هذه الحالة الخاصّة حين لم أصدّق الآنسة فانكورت».

«محقًّا كيف؟ كيف لي أن أوافقك بعد أن فقدت المصداقيّة بسبب هذا؟».

«هل تودّ أن تتحوّل إلى ما مثّلتكَ به بالضبط؟ لا داعي لأن تخشى شيئًا أبدًا»، قال پول.

«آه، يا فتاي العزيز، لا تتحدّث عن التّحوّل مع من هم مثلي. أنا سوف أموت، لا شيء أكثر، بإمكانها أن تستغلّ خيالها الفتيّ (أليس رائعًا؟) في ما هو أفضل من تمثّل مثل هذا الحيوان المنهك الهالك!»، تحدّث المعلّم بنبرة حزن مفاجئة أثارت احتجاج پول؛ ولكن قبل أن يتمكّن من التعبير عن هذا الاحتجاج، واصل كلامه، وقد عاد إلى رواية پول المدهشة: «لم تكن لديّ فكرة أنك بارع هكذا، يسمع المرء عن أمور كثيرة، ولكنّك جيّد بشكل مذهل».

«سأصبح أفضل على هذا النحو»، قال پول بجرأة.

«أرى هذا، وهو ما يسحرني. ولا أرى أنّ هناك كثيرين -حين يبحث المرء حوله- يصبحون أفضل على نحو مذهل. بل

يكونون أسوأ بانتظام، في معظم الأمور. من الأسهل كثيرًا أن تصبح أسوأ، تعلم السّماء أنّني اكتشفتُ هذا. لستُ في أقصى تألّقي، كما تعلم، في معرفة ما يبزغ بكلّ مكان. ولكنك يجب أن تكون أفضل، يجب عليك أن تواصل هذا حقّا. أنا لم أستطع بطبيعة الحال. إنّه صعب جدّا، هذا أصعب ما في الأمر، أن تواصل. ولكنّي أتوقّع أن تنجح في هذا. سيكون عارًا كبيرًا إن لم تفعل».

«من الممتع جدّا الإنصات إليك وأنت تتحدّث عن نفسك؛ ولكنّي لا أعلم ما تعنيه بتصوّراتك عن كونك قد انحدرت»، قال پول أوڤرت بنفاقٍ يمكن الصّفح عنه. بات يحبّ مُحادِثَه إلى درجة كبيرة الآن حتّى إنّه لم يعد يلقي بالا للحقيقة المتعلّقة بتقلّص الموهبة أو الاهتمام.

«لا تقل هذا، لا تقل هذا»، ردّ سانت جورج بوقار، مُسنِدًا رأسه إلى حافّة الأريكة العلويّة رافعًا عينيه نحو السقف. «تعلم تمامًا ما أعنيه. ما قرأت عشرين صفحةً من كتابك حتّى أدركت أنّك تعجز عن نكران هذا».

«تجعلني أبدو بائسًا جدّا»، تنهّد پول بانتشاء.

«أنا سعيد لهذا، فقد يفيدك كنوع من التحذير. وإنّه لَصادم بما يكفي -خصوصًا بالنسبة إلى ذهن نضرٍ فتيّ، مفعم بالإيمان- مشهدُ رجل خُلق من أجل أشياء أفضل يُغرقه الخزي في عُمري هذا». قال سانت جورج، وهو على تلك الحال من التأمّل، بهدوء ولكن بتروّ،

ومن غير انفعالات ظاهرة. كانت نبرته توحي حقّا بوضوحٍ متجرّد قاسٍ -قاسٍ بالنسبة إليه- ودفعت صديقه الشابّ إلى أن يضع كفّه على ذراعه مواسيًا، ولكنّه تابع كلامه وعيناه تبدوان كأنّهما تقتفيان مباهج سقف القرن الثامن عشر: «انظر إليّ جيّدًا، واحفظ درسي عن ظهر قلب، لأنه درس. دع ما هو جيّد يتمكّن منك إلى أن ترجّ، على الأقل، انطباعاتك المثيرة للشفقة، هذا ما قد يجعلك متمكّنًا في المستقبل، لا تصبح في شيخوختك على ما أصبحتُ عليه من اكتئاب وتعلّق بائس بآلهة زائفة!».

«ما الذي تعنيه بشيخوختك؟» سأله الشابّ.

«لقد جعلني مسنًّا. ولكنّني أحبّ شبابك».

لم يردّ پول بشيء، وجلسا صامتين لدقيقة. سمعا الآخرين يتناقشون حول الأغلبية الحكوميّة. ثمّ سأله: «ما الذي تعنيه بالآلهة الزائفة؟».

لم يجد محادثه صعوبة في أن يقول «أصنام السوق؛ المال والتّرف و«العالم»؛ إيواء الأطفال الآخرين وكساء زوجة رجل آخر؛ كلّ ما يدفع المرء إلى الطريق المختصرة السهلة. آه، الأمور الدّنيئة التي يدفعون المرء إلى اقترافها!».

«ولكنّ المرء لا يخطئ حين يؤوي أطفال شخص آخر».

«ينبغي للمرء ألاّ ينجب أطفالًا أصلًا»، ردّ سانت جورج بهدوء. «أعني بطبيعة الحال إذا أراد المرء تحقيق نجاح مّا».

«ولكن أليسوا إلهامًا، أليسوا حافزًا؟».

«حافز على اللعنة، بمعنى فنّيّ».

«تتطرّق إلى أمور بالغة العمق، أمور أودّ مناقشتها معك»، قال پول، «أودّ أن تخبرني عن نفسك بمقدار مجلّدات، إنه عيد عظيم بالنسبة إليّ!».

«هو كذلك بطبيعة الحال، أيّها الشابّ القاسي. ولكن كي أبيّن لك أنّني مازلت غير عاجز -وأنا في انحداري هذا الآن- عن أيّ عمل جديرٍ بالثقة، سأعلق غروري على وتدٍ من أجلك، وأحرقه حتّى يصبح رمادًا. يجب أن تأتي لزيارتي، يجب أن تأتي لزيارتنا»، عقّب سانت جورج. «السيّدة سانت جورج رائعة؛ لا أعرف إن كانت قد أُتيحت لك فرصة محادثتها. ستُسعَد بلقائك؛ هي تحبّ المشاهير العظماء، سواء أكانوا في بداية طريقهم أم ذائعي الصيت. يجب أن تأتي لتناول العشاء، ستكتب زوجتي رسالة دعوة لك. أين يمكن إيجادك؟».

«هذا عنواني المتواضع»، وأخرج أوڤرت دفتر الجيب وسحب منه بطاقة باسمه. وبعد لحظةِ تردّد، على أيّ حال، احتفظ بها، قائلًا إنّه لن يزعج صديقه بهذا الأمر ولكنّه سيأتي لزيارته مباشرة في لندن ويترك البطاقة عند بابه إن لم ينجح في الدخول.

«آه، الرّاجح أنّك لن تنجح؛ زوجتي تقضي معظم وقتها خارج البيت، وحين لا تكون في الخارج تجدها مُنهَكةً بسبب خروجها. لا

بدّ أن تأتي لتناول العشاء، مع أنّ هذا أيضا لن يجدي نفعًا، فزوجتي تصرّ دومًا على إقامة مآدب كبيرة». أغلق سانت جورج الأبواب أكثر، ولكنّه واصل كلامه: «لا بدّ أن تأتي لزيارتنا في الريف، تلك هي الطريقة الأفضل؛ لدينا غرف كافية، والإقامة هناك ليست سيّئة».

«هل لديك بيت ريفيّ؟»، سأله پول بشيء من الحسد.

«آه، ليس مثل هذا! ولكن لدينا مكان نذهب إليه، على مسافة ساعة من محطّة أوستن. وهذا أحد الأسباب؟».

«أحد الأسباب؟».

«أسباب أنّ كتبي رديئة جدّا».

«لا بدّ أن تخبرني بالأسباب كلّها»، قال پول وهو يضحك بشوق.

لم يردّ صديقه على الفور، ولكنّه واصل كلامه بغتةً. «لِمَ لم نلتقِ من قبل؟».

كانت نبرة السؤال توحي لبطلنا بشيءٍ من الإطراء الخاصّ، وقد أحسّ كأنّها تعني ضمنيّا أنّ الرجل العظيم يُدرك الآن ضياع أمر مّا طوال سنوات. «أعتقد نسبيّا أنّه لم يتوفّر السبب للقائنا. لم أكن أعيش في العالم، عالمك. قضيت سنوات عديدة خارج إنكلترا، في بقاع مختلفة».

«طيّب، لا تستمر في فعل ذلك أكثر. لا بدّ أن تخدم إنكلترا، لدينا الكثير لنفعله».

«هل تعني أنّ عليّ الكتابة عنها؟»، بدت نبرة پول مفعمةً بصدقٍ طفوليّ مذعن.

«لا شكّ أنّ عليك هذا. وعلى نحو ممتاز جدّا، هل تفهمني؟ وهذا يُنقص قدرًا من قيمتي بما أنّك فعلتها، فعلتها وأنت في الخارج. أوقف «الخارج!» ابق في بلدك وقم بعملك هنا، قم بأعمال يمكن لنا تثمينها».

«سأفعل كلّ ما تطلبه منّي»، قال پول باهتمام بالغ. «ولكن اعذرني إن قلت لك إنّني لا أفهم كيف تسنّى لك قراءة كتابي»، أضاف. «كنتَ أمامي طوال فترة العصر، في تلك النزهة الطويلة أوّلًا، ثمّ على الشاي في المرج، إلى أن ذهبنا لتغيير ملابسنا من أجل العشاء، وطوال المساء أثناء العشاء، ثمّ هنا في هذا المكان».

أدار سانت جورج وجهه مبتسمًا: «لم أتفرّغ أكثر من ربع ساعة».

«ربع ساعة وقتٌ كثير، ولكنّني عاجز عن معرفة المكان الذي كنتَ تقرؤه فيه. لم تكن تقرأ في قاعة الاستقبال بعد العشاء، كنتَ تتحدّث إلى الآنسة فانكورت».

«ليس هناك أدنى تعارض بين الأمرين، لأنّنا كنّا نتحدّث عن روايتك جنستريلا. حدّثتني عنها، أعارتني نسختها».

«أعارتك إيّاها؟».

«هي تحملها معها دومًا».

«هذا لا يصدّق»، قال پول متورّد الوجه.

«هذا رائع بالنسبة إليك، ولكنّه أدّى خدمة جيّدة بالنسبة إليّ أيضًا. حينما ذهبت السيّدات ليخلدن إلى النوم عرضتْ عليّ بلطف أن ترسل الكتاب إليّ. أحضرته خادمتها وأنا في القاعة وأخذته معي إلى غرفتي. لم أكن أفكّر في التوجّه إلى هنا، لا أفعل هذا إلاّ نادرًا، ولكنّني لا أنام في وقت مبكّر، ولا بدّ من أن أقرأ ساعةً أو اثنتين. جلستُ أقرأ روايتك على الفور، قبل أن أغيّر ملابسي، وحتّى قبل أن أخلع أيّ شيء ما عدا معطفي. أظنّ أنّ هذه إشارة إلى قوّة فضولي إزاء الكتاب. قرأت مدّة ربع ساعة، كما قلت لك، ولكنّني ذُهلت بقوّة، وإن لم يكن ذلك في أكثر من ربع ساعة من القراءة».

«أوه، ولكنّ البداية ليست جيدة تمامًا، وقيمة الكتاب في مجموعه!»، قال أوڤرت الذي كان ينصت إلى هذا الكلام بحرص بالغ. «ووضعتَ الكتاب لتأتي بحثًا عنّي؟»، سأله.

«أثّر فيّ بهذا القدر. قلتُ لنفسي «أرى أنّ الأمر جرى من تلقاء نفسه، ها هو هناك، وبالمناسبة، ها قد انتهى اليوم ولم أقل له سوى عشرين كلمة». خطر لي أنّك ستكون على الأرجح في حجرة التدخين وأنّ أوان إصلاح إهمالي لم ينقضِ بعد. وددتُ أن أقوم بمبادرة لطيفة معك، لذا ارتديت معطفي ونزلت إلى هنا. سأعيد قراءة كتابك من جديد عند عودتي».

غرق صاحبنا في الخجل، تأثّر تأثّرا شديدًا لم يعرفه من قبل أمام مثل هذا الاحتفاء بشخصه. «أنت ألطف من عرفتُ فعلًا. حدث

هذا حقّا؟[1]، وكنتُ أنا جالسًا هنا معك طوال الوقت من غير أن أدرك هذا ومن غير أن أشكرك!».

«اشكر الآنسة فانكورت، كانت هي مَنْ حفزني. جعلتني أحسّ كما لو أنّني قرأت روايتك بالفعل».

«هي ملاك من ملائكة السماء!»، قال پول.

«هي كذلك بالفعل. لم أرَ يومًا شخصًا مثلها إطلاقا. اهتمامها بالأدب مذهل، شيءٌ تتميّز به وحدها؛ تأخذه بجدّيّة كبيرة. إنها تشعر بالفنون وتريد أن تتعمّق فيها أكثر. يكاد الأمر يكون مهينًا لمن يمارس تلك الفنون؛ فضولها، تعاطفها، إيمانها الراسخ. كيف لشيء أن يكون رائعًا على نحو ما تفعل؟».

«هي كائن نادر الوجود،» قال الشابّ متنهّدًا.

«أعمق من رأيت، ذكاء فنّيّ من الطراز الأوّل حقّا. ويسكن في مثل هذا الجسد!»، ردّ سانت جورج مذهولًا.

«يودّ المرء لو يحظى بفتاة مثلها»، تابع پول.

«آه، هاهنا المشكلة، ما من شيء مثل الحياة!»، قال مُحادثه. «حينما تنتهي، تُستَهلك وتُستنفَد وتظنّ أنّ جعبتك باتت خاوية، أنت لا تزال مرغوبًا، لا تزال تنعم بالأحاسيس والإثارة، تبزغ الفكرة -من قلب الواقع- وتُبيّن لك أنّ هناك ما يمكن فعله دومًا، ولكنّني لن أفعلها، هي ليست لي!».

---

(1) بالفرنسيّة في الأصل، Cela s'est passé comme ça?.

«ماذا تعني بأنّها ليست لك؟».

«أوه، لقد انتهى كلّ شيء، هي لك، إن شئت».

«آه، هناك تشابه!»، قال پول. «هي لن تكون لأديب مغمور كَدِر؛ هي للعالم، العالم الثريّ البرّاق بِرَشاواه ومكافآته. وسيطوّقها هذا العالم بقبضته، سيختطفها».

«سيحاول هذا، ولكنّها مجرّد حالة قد تتضمّن صراعًا. وسيحتاج الأمر إلى صراع، بالنسبة إلى رجلٍ يحمل العالم في داخله، مُسلَّحًا بشبابه وموهبته».

لم يكن وقع تلك الكلمات هيّنًا على وعي پول أوڤرت، لقد أرغمته على الصمت هنيهة. «من العجيب أنّها بقيت على ما هي عليه؛ تبذل نفسها هكذا، مع وجود الكثير ممّا يمكنها منحه».

« تعني بقاءها شديدة البراءة، وطبيعيّة جدًا؟ أوه، هي لا تكترث قدر قشّة، هي تمنح لأنّها تفيض. لديها مشاعرها ومعاييرها الخاصة؛ وهي لا تصرّ على تذكّر أنّ عليها أن تكون فخورةً. ثمّ إنّها لم تقضِ هنا وقتًا يكفي لإفسادها؛ لقد أصابتها موضة أو اثنتان، ولكن من الموضات الممتعة وحدها. إنها قرويّة، قرويّة مفعمة بالعبقريّة»، تابع سانت جورج كلامه؛ «تخبّطاتها ساحرة، أخطاؤها ممتعة. لقد عادت من آسيا مُحمَّلةً بألوان الفضول والشّغف الجامح كلّها. هي من الطراز الممتاز وتستنزف نفسها في الطراز الأقلّ جودة. هي الحياة نفسها ونادرا مّا تُبدي اهتمامًا بالمحاكاة. هي تمزج الأشياء كلّها معًا، ولكنّها

لا تغفل عن إدراك كلّ أمرٍ على حِدة. تُدرك الأشياء تبعًا لوجهة نظر متفرّدة -كما لو أنّها تنظر إليها من قمّة جبال الهيمالايا- وما لمست شيئا إلاّ زادته عظمة. وفوق كلّ هذا، تبالغ، أعني بينها وبين نفسها. تبالغ في أمرك وأمري».

ما من شيء في هذا الوصف كان سيخفّف الاضطراب الذي اعترى صديقنا الشابّ بفعل هذا الرسم لكائن رائع مثلها. بدا له كأنّما يكشف عن فنّ يد سانت جورج البارعة، وقد تاه وهو يحدّق في الصورة التي كانت تحلّق أمامه، صورة جسد امرأة ينبغي له أن يكون جزءًا من بهاء رواية. ولكن مع انتهاء لحظة التأمّل، استحالت الصورة إلى دخان، ومن قلب هذا الدّخان -النفثة الأخيرة من سيجار كبير- خرج صوت الجنرال فانكورت الذي كان قد غادر الآخرين واقترب ليغرس جسده أمام السيّدين الجالسين على الأريكة. «أفترض، أيّها الصديقان، أنّكما حين تنغمسان في الحديث تظلّان جالسين نصف الليل».

«نصف الليل؟ غير معقول![1]، أنا أتّبع نظاما صحّيّا»، وانتصب سانت جورج واقفًا.

«فهمت، أنت من نباتات الدّفيئة»، ردّ الجنرال ضاحكًا، «هكذا تُنتج أزهارك».

«أُنتجها بين العاشرة والواحدة نهارًا، أُزهر وفق عادةٍ ثابتة!»، قال سانت جورج.

---

(1) بالفرنسيّة في الأصل، jamais de la vie.

«وبألق عظيم!»، أضاف الجنرال المهذّب، بينما انتبه پول إلى اكتراث عابر أبداه مؤلّف رواية «شادومير»، حينما كرّر العبارة بينه وبين نفسه، وهو يُخاطَب كما يخاطَب روائيّ شهير. وخطرت للشابّ فكرة أنّ عليه ألاّ يعتاد هذا السلوك؛ إذ يُشعره دومًا بعدم ارتياح -بفعل الشكّ الذي سيراود الناس- ويدفعه دومًا إلى محاولة كبحه. من الواضح أنّ هذا الزميل العظيم قد قسا واخشوشن، حوّل نفسه إلى مجرّد مظهر زائف. كان الرجال قد أنهوا تدخينهم وحملوا شموعهم متّجهين إلى غرف نومهم؛ ولكن قبل أن يخرجوا جميعهم اقترب اللورد وورتماوث ليدعو ضيفيه اللذين انشغلا بالحديث معًا إلى أن يدخّنا شيئًا. وقد رفض كلاهما الدعوة؛ وهنا قال الجنرال فانكورت: «هل هذا بسبب النظام الصحّيّ؟ ألا تسقيان أزهاركما؟».

«أوه، ينبغي لي أن أُغرقها!» أجاب سانت جورج؛ ولكن، وبينما هو يغادر الغرفة برفقة صديقه الشابّ، أضاف بغرابة أثارت اهتمام پول، في نبرة خافتة: «زوجتي لا تسمح لي».

«طيّب، أنا سعيد لأنّني لست أحدكما يا رفاق!» ختم الجنرال كلامه بأناقة.

كان لقُرب سمرسوفت من لندن هذا التأثير المرعب بالنّسبة إلى شخص كان يمنّي نفسه بشيء من الرفقة الاجتماعيّة في عربة قطار، إذ أنّ معظم الزوّار عادوا، بعد انتهاء الغداء، إلى لندن في عرباتهم التي وصلت لتُقلّهم، بينما عاد الخدم بالقطار مع أمتعتهم. كان ثلاثة شبّان أو أربعة، من بينهم پول أوڤرت، قد استغلّوا فرصة ذلك الوئام

الجماعيّ؛ ولكنّهم وقفوا الآن في رواق البيت ورأوا الآخرين يرحلون. ركبت الآنسة فانكورت عربة فكتوريا برفقة أبيها بعد أن صافحت بطلنا وقالت، وهي تبتسم بأقصى ما في هذا العالم من صراحة: «يجب أن أراك أكثر. السيّدة سانت جورج رائعة جدًا، لقد وعدت بأن تدعونا كلينا إلى العشاء معًا». أخذت تلك السيّدة وزوجها مكانيهما في عربة برُوَم مفتوحة حضرت في الوقت المناسب -وكانت قد طلبت حضور عربة مغلقة- وحالما لوّح صديقنا الشابّ بقبّعته لهما، ردًّا على إيماءة رأسيهما وتلويحاتهما وهما يودّعانه، فكّر بأنّهما، وهما معًا، يمثّلان صورة نجاح مُشرِّفة، صورة للجوائز الماديّة ومكانة الأدب الاجتماعيّة. لم تكن تلك الأشياء تمثّل الصورة بأكملها، ولكنّه أحسّ مع هذا بشيءٍ من الزهو لكونه أديبًا.

4

قبل انقضاء أسبوع التقى الآنسة فانكورت بشارع بوند، في عرض خاصّ لأعمال رسّام شابّ في صالة «بلاك أند وايت» [أبيض وأسود] أبدى لطفًا كبيرًا في دعوته إلى ذلك العرض الخانق. كانت اللوحات بديعةً، ولكنّ الازدحام في القاعة الصغيرة الوحيدة كان كثيفًا إلى حدّ أحسّ فيه كأنّه غارق حتّى عنقه في كيس من الصوف. حشد آخر من الناس عند الزاوية الخارجيّة كانوا يجهدون عبر حني ظهورهم إلى الأمام مُظهرين، تحتهم، محاولةً أشدّ لمقاومة ضغط الزّحام، كي يحافظوا على مسافة بين أنوفهم وبراويز اللوحات البرّاقة؛ وبفعل ستارةٍ أفقيّةٍ عريضة مثبّتة في الأعلى حجبتْ ضوء النهار ولم تسمح إلاّ للقليل منه بالتسلّل، فقد ظلّ محتوى اللوحات معتمًا مبهمَ المعالم، وضائعًا أثناء تأمّل العناصر المكوّنة له؛ ذلك التأمل الذي بدا مركّزًا على الأخصّ في الأعين الحزينة من وجوهٍ أنثويّةٍ بعينها، تُتوّجها قبّعات باستدارات وريش غريب، ترتفع فوق الأعناق الطويلة وتُطلّ على الآخرين. ميّز پول أحد الوجوه، وكان أجمل بكثير من البقيّة، وأدرك حين تمعّنَ أنّها الآنسة فانكورت. كان جماله يزداد بفعل الابتسامة البهيجة التي أرسلتها إليه عبر الحواجز المحيطة بهما، ابتسامة دفعته إلى الاقتراب منها بأقصى سرعة ممكنة

وهو يشقّ طريقه وسط الزّحام. لقد خَبِر بنفسه في سمرسوفت أنّ آخر ما قد تبديه طبيعتها هو التّجاهل أو عدم الاكتراث؛ ومع ذلك، وبالرغم من هذا الاحتراز، أحسَّ برضًى منعش لعدم تظاهرها بأنّها تنتظر وصوله برصانة. رسمت ابتسامةً متألّقةً كأنّها تتمنّى أن يسرع، وما إن أصبح في مجال السّمع حتّى هتفت بصوتٍ يملؤه السرور: «إنّه هنا، إنّه هنا، سيعود خلال دقيقة!».

«آه أبوك؟»، ردّ پول وهي تمدّ يدها لتصافحه.

«أوه، لا يا إلهي، هذا ليس من اهتمامات أبي المسكين. أعني السيّد سانت جورج. غادرني الساعة ليتحدّث إلى شخص مّا، سيعود. هو من جاء بي إلى هنا، أليس هذا ساحرًا؟».

«آه، هذا يجعله أفضل منّي، لم أكن لأتمكّن من «الإتيان بك»، أليس كذلك؟».

«لو كنتَ لطيفًا جدًا واقترحتَ ذلك فلمَ لن تتاح الفرصة لك كما أتيحت له؟»، ردّت الفتاة بوجهها الذي كان، دون التعبير عن غنج رخيص، يؤكّد سعادتها الحقيقية.

«لماذا هو ربّ العائلة[1] إذن، لديهم أولويّاتهم»، أوضح لها پول. ثمّ بادر يسألها بسرعة: «أيمكنك أن تذهبي معي لرؤية بعض الأمكنة؟».

«كما تشاء!»، ابتسمت. «أعرف ما تقصده، على الفتاة أن تكون

(1) بالفرنسيّة في الأصل، à père de famille.

محاطة بأناس عديدين...» ثمّ قطعت كلامها: «لا أعرف؛ لا شيء يشغلني. لطالما كنتُ كذلك، بإمكاني أن أخرج مع من أشاء. سررتُ كثيرًا بلقائك هنا»، أضافت بنبرة واضحة عذبة جذبت كلّ من حولها فالتفتوا إليها.

«دعيني أردّ، على الأقلّ، جميلَ هذه المبادرة بأخذك بعيدًا عن هذه المهرسة»، قال صديقها. «من المؤكّد أنّ الناس ليسوا سعداء هنا!».

«لا، بل يبدون كأنّهم في حداد بائس، أليس كذلك؟ ولكنّني سعيدةٌ جدًا حقًا وقد وعدتُ السيّد سانت جورج بالبقاء هنا في مكاني إلى حين عودته، سيأخذني برفقته إلى مكان مّا. يوجّهون إليه دعوات من أجل مناسبات كهذه، أكثر ممّا يرغب فيه. كان من بالغ لطفه أن يفكّر باصطحابي».

«يوجّهون إليّ أنا أيضًا دعوات من هذا النوع، أكثر ممّا أرغب فيه، وإنْ كان التفكير في اصطحابك سيَفي بالغرض...!»، واصل پول عبارته.

«أوه، كم أُسعَد بها، وبكلّ ما يمثّل الحياة، وكلّ ما يمثّل لندن!».

«أفترض أنّه ليست لديهم عروض خاصّة في آسيا»، قال ضاحكًا، «ولكن كم هو مؤسف أن تنتهي جميع عروض هذا العام، حتّى في هذه المدينة المُتخَمة».

«طيّب، لنتركها إلى العام المقبل، فأنا أتمنّى أن تكون على يقين من استمرار صداقتنا دومًا. ها قد جاء!»، تابعت الآنسة فانكورت كلامها قبل أن تُتاح لپول فرصة الردّ.

ميَّز سانت جورج عبر الفجوات بين الحشد، ولعلّ هذا ما دفعه إلى التعجّل قليلًا في قول: «آمل ألّا يعني هذا أنّ عليّ انتظار العام المقبل كي أراك».

«لا، لا، ألن نلتقي لتناول العشاء في الخامس والعشرين من هذا الشهر؟»، قالت لاهثةً بحماس يعادل سعادته.

«هذا في العام المقبل تقريبًا. أليست هناك وسيلة لرؤيتك قبل هذا؟».

حدّقت بكلّ ألقها: «هل تعني أنّك ستأتي؟».

«مثل رصاصة، لو كنتِ لطيفة وطلبتِ منّي هذا!».

«يوم الأحد إذن، الأحد القادم؟».

«ما الذي فعلتُه كي تشكّكي في هذا؟»، سألها الشابّ ببهجة.

التفتت الفتاة مباشرةً إلى سانت جورج الذي كان قد وصل إليهما، وهتفتْ بانتصار: «سيأتي يوم الأحد، هذا الأحد!».

«آه، يومي أنا، يومي أنا أيضًا!»، قال الروائيّ الشهير لمرافقتهما ضاحكًا.

«نعم، ولكنّ اليوم ليس مخصّصا لك وحدك. يجب أن نلتقي في «ساحة مانتشستر»[1]؛ لا بدّ أن تتحدّث، لا بدّ أن تكون رائعًا!».

«إنّنا لا نلتقي بما يكفي»، بادر سانت جورج، وهو يصافح مُريده، «مشاغل كثيرة، آه، أشياء كثيرة! ولكن لا بدّ أن يكون الريف

(1) ساحة مانتشستر Manchester Square: حديقة في منطقة مرليبون بلندن، أنشئت في القرن الثامن عشر.

موعدَنا في سبتمبر. لن تنسى وعدك لي بهذا!».

«ياه، هو قادم في الخامس والعشرين، ستراه عندئذ»، قالت الفتاة.

«في الخامس والعشرين؟»، سأل سانت جورج بغموض.

«سنتناول العشاء معكم؛ آمل أنّك لم تنس. سيتناول العشاء في الخارج ذلك اليوم»، أضافت بسعادة لپول.

«أوه، فليباركني الله، نعم، هذا رائع! وأنت قادم أيضًا؟، لم تخبرني زوجتي»، قال سانت جورج له، «مشاغل كثيرة، مشاغل كثيرة!»، كرّر.

«أناس كثيرون، أناس كثيرون!»، قال پول بمرح قبل أن يلكزه بمرفقه.

«ينبغي ألاّ تقول هذا. هم يقرؤونك كلّهم».

«أنا؟ كم أودّ أن ألقاهم! اثنين فقط أو ثلاثة على الأكثر»، ردّ الشابّ.

«هل سبق أن سمعتِ شيئًا كهذا؟ هو يعلم، بغروره، كم هو بارع!»، قال سانت جورج ضاحكًا للآنسة فانكورت. «هم يقرؤون أعمالي، ولكنّ هذا لا يمنحني أدنى أفضليّة عليهم. اهربوا منهم، اهربوا!» وتقدّمهما في الخروج من المعرض.

«سيأخذني إلى المنتزه»، أسرّت الآنسة فانكورت لأوڤرت بجذل وهما يقطعان الممرّ المفضي إلى الشارع.

«آه، هل يذهب إلى هناك؟»، سألها پول، وهو يلمّح بإشارة غير متوقّعة إلى سلوك سانت جورج.

«إنّه يوم جميل، سيكون هناك حشد كبير. سنذهب لمشاهدة الناس، لمشاهدة الطّباع»، تابعت الفتاة كلامها، «سنجلس تحت الأشجار؛ ونمشي مع شارع رو».

«أذهب مرّة في السنة، للعمل»، قال سانت جورج، وقد سمع سؤال پول.

«أو برفقةِ قريبةٍ من الريف، ألم تقل لي هذا؟ أنا هي القريبة الريفيّة!»، قالت من فوق كتفها لپول، وصديقهما يجذبها إلى عربة أجرة أشار إليها. راقبهما الشابّ وهما يصعدان؛ وردّ، وهو يقف هناك، التلويحة الودودة من اليد التي أظهرها سانت جورج له، بعد أن اختفى في العربة بجانب الفتاة. بل ووقف منتظرًا انطلاق العربة واختفاءها في فوضى شارع بوند. تبعها بعينيه، وأثارت في داخله أفكارًا محرجة. «هي ليست لي!»، كان الروائيّ العظيم قد قال بإصرار في سمرسوفت؛ ولكنّ طريقته في فرض نفسه عليها لا تبدو متوافقةً مع مثل هذا الجزم. كيف يمكن له أن يتصرّف على نحو مختلف إذن لو كانت له؟ انبثق حسدٌ غامض في قلب پول أوقرت وهو يشقّ طريقه ماشيًا وحده؛ شعورٌ موجَّهٌ بالتساوي، وعلى نحوٍ غريب، إلى راكبَيْ تلك العربة كليهما. كم يودّ لو يتنزّه في شوارع لندن مع فتاة مثلها! كم يودّ أن يذهب ويراقب «الطّباع» مع سانت جورج!

في الأحد التالي عند الساعة الرابعة دُعي إلى حيّ مانتشستر، حيث تحقّقت أمنيته السرّيّة بإيجاد الآنسة فانكورت وحدها. كانت في غرفة مزدحمة لطيفة مُضاءة وكبيرة، ذات طلاء أحمر، وتحفّ بها الأشياء

المزخرفة الرخيصة الغرائبيّة التي استُقدِمت من البلدان الجنوبيّة والشرقيّة، إذ كان يُراد منها أن تكون تعبيرًا عن الحياة الفلاحيّة، وتغصّ جدرانها بأوانٍ ذات أشكال متنوّعة، مرتَّبة على رفوف عاديّة، وبلوحات كثيرة رسمتها بألوان مائيّة يدُ السيّدة الصغيرة نفسها (كما علم الزائر)، تُصوِّر على مساحة واسعة جريئة لحظات الغروب، وجبال الهند، ومعابدها وقصورها. جلس ساعة، أكثر من ساعة، ساعتين بالأحرى، ولم يصل أحد طوال هذا الوقت. وكانت مضيّفته لطيفةً جدًا في الإشارة، بسماحتها المتحرّرة، إلى أنّها تشعر بسرور لأنّ أحدًا لم يقاطعهما؛ كان من النادر في لندن، في ذلك الفصل على الأخصّ، أن يحظى الناس بحديث لا يعكّره شيء. ولكن من حسن الحظّ أنّ نصف الناس الآن، في هذا الأحد الجميل، كانوا خارج المدينة، وكان هذا لصالح مَنْ لم يغادر المدينة، بينما كان من غادروها يُظهرون تعاطفهم معها. كان هذا عيب لندن، واحدًا من عيبين أو ثلاثة، من لائحة العيوب القصيرة التي ميّزتْها الفتاة في مدينة العالم المزدحمة التي تعبدها، عيبها أنّها لا تتيح فرصًا كثيرة لتبادل الحديث؛ لا تملك أبدًا ما يكفي من وقت لمواصلة أيّ حديث حتّى نهايته.

«أشياء كثيرة، أشياء كثيرة!»، قال پول، مستعيدًا هتاف سانت جورج قبل أيّام عديدة.

«آه، نعم، ثمّة أشياء كثيرة بالنسبة إليه، حياته معقدّة جدًا».

«هل رأيتِها عن قرب؟ هذا ما أودّ أن أفعله؛ قد يكشف غموض بعض الأسرار»، واصل زائرها كلامه. وسألته عن الأسرار

التي يعنيها، فردّ: «أوه، أعني ميزات عمله، تفاوتاته، تفاصيله السطحية. ثمّة غموض لا حدّ له بالنسبة إلى مَنْ يراه من وجهة نظر فنيّة».

بدت متحمّسة بعد هذه العبارة، «آه، صِفها أكثر إن أمكن، هذا مثير جدّا. ليست هناك مسائل موحية كهذه المسألة. كَمْ أنا شغوفة بها. هو يظنّ أنّه وصل إلى درجة الإخفاق، وهم!»، تفجّعت بعذوبة.

«هذا يعود إلى ماهيّة غايته المثلى. مع مواهبه لا بدّ أن تكون تلك الغاية رفيعةً. ولكن إلى أن يعرف المرء ما وضعه الرجل نصب عينيه حقّا..؟ هل عرفتِها أنتِ بالصدفة؟» قطع الشابّ كلامه.

«أوه، هو لا يحدّثني عن نفسه. ولا أستطيع حمله على فعل ذلك. هذا يغيظني جدًا».

كان پول، حينئذ، على وشك أن يسألها عمّا كان يتحدّث به إليها، ولكنّه تعقّلَ وغيّر سؤاله: «هل تظنّين أنّه تعيس في البيت؟».

بدت كأنّها تعجّبت من السؤال، «البيت؟».

«أعني علاقته بزوجته. لديه طريقة مُحيّرة قليلًا في التلميح إليها».

«ليس لي»، قالت ماريان فانكورت بعينيها الصافيتين. «لن يكون هذا مناسبًا، أليس كذلك؟»، سألته بوقار.

«ليس ذلك تحديدا؛ إذن أنا سعيد لأنّه لا يذكرها أمامك. فمديحه لها قد يُضجركِ، وهو الذي لا همّ له إلاّ أن يبعد الضجر عنك.

ومع ذلك هو يعرفكِ أفضل ممّا أعرفك».

«آه، ولكنّه يحترمك!»، صاحت الفتاة بحسد.

حدّق فيها زائرها لحظة، ثمّ انفجر ضاحكًا، «ألا يحترمك أنتِ؟».

«بلى، ولكن ليس على النحو ذاته. هو يحترم ما أنجزته، هكذا قال لي ذلك اليوم».

تمعّن پول في الإجابة، ولكنّه تمالك نفسه، «عندما ذهبتما لمشاهدة الطّباع؟».

«نعم، وجدنا أصنافًا عديدة، لديه ملاحظات عنهم! لقد تحدّث كثيرًا عن كتابك، يقول إنّه مهمّ حقًا».

«مهمّ! يا للكائن الجليل!»، واشتعل مؤلّف الكتاب بهجة.

«كان ممتعًا على نحو رائع، ومضحكًا بشكل لا يوصف، ونحن نتمشّي. إنه يرى كلّ شيء؛ لديه مقارنات وتشبيهات كثيرة، وهي دقيقةٌ دومًا. «إنّه تحفة»[1]، كما يقولون».

«نعم، بمواهبه تلك، يا للأشياء التي يمكن له تحقيقها!»، تنهّد پول.

«ولا تظنّ أنّه حقّقها أصلًا؟».

وكان هذا هو المغزى، «حقّق جزءًا منها، وحتّى ذلك الجزء كان بطبيعة الحال هائلًا. ولكن كان بوسعه أن يصير أحد أعظم الأدباء. وعلى أيّ حال، دعينا لا نجعل هذا الحديث تقييمًا للكفاءات. فحتّى على حالها تلك»، ختم صديقنا كلامه، «كتاباته منجم ذهب».

(1) بالفرنسيّة في الأصل: C'est d›un trouve.

لهذه الخلاصة استجابت الفتاة بحماس، وبقي الاثنان يتبادلان الأفكار طوال نصف ساعة عن نتاجات المعلّم الكبرى. كانت تعرفها جيّدًا، بل كانت تعرفها أكثر من زائرها الذي صُدم بذكائها النقديّ وبأمرٍ كبيرٍ وراسخٍ في حركة ذهنها. قالت أشياء أذهلته، ومن الواضح أنّها راودتها عفويًا؛ لم تكن عبارات منتقاة جاهزة، بل نطقتها بمنتهى البراعة. كان سانت جورج محقًا في اعتبارها من الطراز الممتاز، في أنّها لا تخشى الاندفاع، من دون تذكّر أنّ عليها الشعور بالفخر. وفجأةً خطر لها شيء مّا، فقالت: «تذكّرت أنّه تحدّث عن السيّدة جورج مرّة وحيدة أمامي. قال، في معرض حديث، إنّها لا تكترث للكمال».

«تلك جريمة فادحة تقترفها زوجة فنّان،» ردّ پول.

«نعم، يا للمسكينة!»، وأطلقت الفتاة تنهيدة تُلمح إلى مشاعر عديدة، بعضها ذو تأثير لطيف، ولكنّها أضافت على الفور: «آه، الكمال، الكمال، كم ينبغي للمرء أن يسعى إليه! آه لو أستطيع!».

«بإمكان أيّ شخص أن يبلغه على طريقته»، قال رفيقها.

«بطريقته هو، نعم، ولكن ليس بطريقتها. النّساء مكبوحات جدًا، مُستنكَرات جدًا! ولكن سيكون من العار ألاّ تسعى إلى شيء تريده، أليس كذلك؟»، واصلت الآنسة فانكورت كلامها، ملقيةً بقاطرة أفكار على عجل، لتطلق بعد ذلك قاطرةً أخرى في الحال، وتلك عادةٌ متأصّلة فيها. وجلس هذان الشابّان، حينئذ، يناقشان مواضيع راقية في صالة الاستقبال المزيَّنة بعناية، كانا في «فصلها»

اللندنيّ يتناقشان، بحماس متّقد، عن تيمة الكمال الراقية. ولا بدّ، في غمرة هذه الزينة المنتقاة، من قول إنّهما كانا معنيّين بالأمر عمليّا. كانت نبرة صوتيهما مفعمةً بالصّدق، وعاطفتهما بالجمال؛ لم يكن أيّ واحد منهما يستعرض أمام الآخر أو أمام أيّ شخص آخر.

كان الموضوع واسعًا جدّا حتّى إنّهما اضطرّا إلى اختصاره؛ فالكمال الذي اتّفقا عليه في تلك اللحظة، على قصر نقاشهما، هو ذاك المتعلّق بالعمل الفنّيّ الجميل النموذجيّ. كان خيال صديقتنا الشابّة، كما يبدو، قد أبحر بعيدًا في هذا الاتّجاه، وكان ضيفها مغمورًا بمشاعر البهجة النادرة وهما يتبادلان حديثًا متكاملًا. كان لتلك الحادثة أن تعيش سنوات في ذاكرته، وحتى في خياله؛ إذ تضمّنت تلك الميزة التي يرشح بها الحظ مثل قطرة واحدة في زمن طويل، ميزة تمهّد لنقاشات لاحقة. وكان يواصل، متى شاء، استعادة مشهد الغرفة، الغرفة الحمراء المضيئة ذات الجوّ اللّطيف المؤنس الذي يحثّ على تجاذب أطراف الحديث، وذات السّتائر التي كان لها، بلمسة جريئة موفّقة، ذاك اللّون الأزرق السّاطع. كان يتذكّر أماكن أشياء بعينها، ذلك الكتاب المفتوح على الطاولة بل وأريج الأزهار الكثيف المتضوّع هناك، على اليسار، خلفه تقريبًا.

كانت تلك الحقائق عتبةً فعليّةً لإثارةٍ خاصّة رائعة ولدت في تينك الساعتين، إثارةٍ لعلّ إشارتها الأساسيّة تكمن في دفعه إلى أن يتحسّس داخله ويواصل تكرار العبارة ذاتها في مخيّلته «لم تكن لديّ أدنى فكرة عن وجود فتاة مثلها، ما كان لي أن أتخيّل وجود فتاة مثلها!»، أذهله تحرُّرها وسحَره، وهذا ما بدا كأنّه يبسّط الحقيقة العمليّة.

كانت على مشارف ترسيخ شخصيّة مستقلّة، فتاة يتيمة الأمّ أنهت سنوات مراهقتها وباتت لها مكانةٌ ومسؤوليّات، فتاة لم تكن لتكتفي بحدود الآنسة الصغيرة. كانت تأتي وتذهب من دون أن تجرّ وراءها وصيفةً مسنّة، بل تستقبل الناس وحدها، ومع أنّها تفتقر إلى التصلّب تمامًا، فإنّ مسألة الحماية أو الوصاية كانت خارج حساباتها تمامًا. كانت تعطي ذلك الانطباع الذي يشفّ عن صفاء ونبل ممتزجين بسماحة وطبيعيّة، انطباع لا يُلمّح إلى أدنى صلة بفتاة «سهلة المنال» بالرغم من وضعها المتحرّر الحاليّ. إنّها متحرّرة وعصريّة فعلًا، وأرغمت پول أوڤرت، الميّال إلى الألوان القديمة وبريق الزمن الذهبيّ، على التّفكير المشوب بشيء من الحذر أمام لوحة المستقبل المشوّشة.

لقد عجز عن اعتياد تعلّقها بالفنون التي يهتمّ بها؛ بدا الأمر شديد الروعة على نحو لا يمكن معه أن يكون حقيقيًا، كان من عظيم الخطر أن يغامر بالسقوط في بئر العاطفة ذاك. يمكن للمرء أن يتيه في الصحراء بسهولة، هذا ما كان مكتوبا في أوراق الحظّ وذاك هو قانون الحياة؛ غير أنّ من النادر جدًا سقوط المرء في بئر كرستاليّة. ومع أنّ طموحاتها كانت تبدو لوهلة متهوّرةً جدًا حتّى إنّها لا تكاد تكون حقيقيّة، فإنّها تبدو له في اللحظة التالية ذكيّةً جدًا على نحو يستحيل معه أن تكون زائفة. كانت طموحات راقيةً ومبتذلةً معًا، وعلى الرغم من كونها متقلّبةً ومتناقضة، فإنّه فضّلها على كلّ ما صادفه في حياته من علاقات شبيهة. كان من الراجح جدًا أنّها ستتخلّى عنها، تستبدلها بالسياسة أو «الدّهاء» أو بمحض أمومة خصبة، كما هي عادة الفتيات المتعلّمات المتبرّجات القويّات اللواتي يكنّ موضوع

تملّق دائم في عصر التّرف ومجتمع الرفاهيّة.

لاحظَ أنّ للألوان المائيّة على جدران الغرفة التي تجلس فيها ساذجة، ولاحظ ما فيها من إيحاء بأنّ تلك السذاجة في الفنّ تماثل قيمة الصفر في العدد، فتكون أهميّته في الرقم الذي يقترن به. وعلى أيّة حال فقد كان، في هذه الأثناء، قد وقع في حبّها. وقبل أن يغادر، لم ينسَ أن يقول لها: «ظننتُ أنّ سانت جورج قادمٌ لرؤيتك اليوم، ولكنّه لم يأتِ».

ظنّ لوهلة أنّها ستصرخ: «هكذا إذن!»[1]، هل أتيت لمجرّد رؤيته؟»، ولكنّه أدرك في اللحظة التالية مدى تفاهة هذه العبارة إذا صاحبتها أيّ إشارة من إشارات الغزل التي سيبديها لها. أمّا هي فاكتفت بالإجابة: «آه، صحيح، ولكنّني لا أظنّ أنّه سيأتي. أوصاني بألاّ أتوقّع حضوره». ثمّ أضافت بمرح، ولكن بمنتهى اللطف: «قال إنّ هذا لن يكون منصفًا لك. ولكنْ أظنّ أنّني كنتُ قادرةً على التعامل مع اثنين».

«وكذلك أنا»، ردّ پول أوڤرت، موسّعًا مدى المعنى قليلًا ليجاري عبارتها. والحقّ أنّ تقديره العالي للمناسبة كان منتهى التقدير للمرأة الجالسة أمامه، وهكذا سيبدو له حضور أيّ شخص آخر في المشهد، حتّى لو كان بمنزلة سانت جورج، غير ذي بالٍ في هذه الساعة.

غادر البيت وهو يقلّب تفكيره في ما قصده الرجل العظيم بأنّ هذا لن يكون منصفًا له؛ وكذلك، وعلى نحو أكبر، في ما إذا كان

(1) بالفرنسيّة في الأصل: Comment donc?.

قد امتنع حقّا عن الحضور بسبب هذه الفكرة. ولمّا كان يشقّ طريقه في عزلة يوم الأحد وهدوئه في «ساحة مانتشستر»، ملوّحًا بعصاه، ومغمورًا بقدر كبير من العاطفة المستعرة في روحه، بدا له أنّه يعيش في عالمٍ سمحٍ على نحو غريب. كانت الآنسة فانكورت قد أخبرته بأنّ من المحتمل ألاّ تكون موجودة، هي أو أبوها، يوم الأحد القادم، ولكنّها تنتظر زيارة منه في المناسبة التالية. ووعدته بأن ترسل إليه لو أُلغي سفرهما، وستتصرّف على هذا الأساس. وبعد أن وصل إلى أحد تلك الشوارع المتفرّعة عن الساحة، توقّف، من دون نيّة مسبقة، يقلّب نظره بحثًا عن عربة أجرة. وخلال لحظات رأى واحدة تدخل الشارع من الجانب الآخر وتشقّ الطريق مقتربةً منه. كان على وشك مناداة السائق حينما انتبه إلى أنّ هناك «حريفا» داخلها. ثمّ انتظر، ورأى الرجل يتهيّأ لإنزال راكبه إذ توقّف أمام أحد البيوت. كان من الواضح أنّ ذلك البيت هو المكان الذي غادره هو لتوّه، وبالأحرى انتبه إلى هذا حين عرف أنّ هنري سانت جورج هو الراكب الذي ترجّل من العربة. استدار پول بسرعة كما لو أنّه ضُبط وهو يسترق النّظر. تخلّى عن ركوب تلك العربة، وفضّل متابعة طريقه مشيًا؛ لن يذهب إلى أيّ مكان آخر. شعر بسعادة لأنّ سانت جورج لم يُلغِ زيارته نهائيًا، فقد كان هذا سيبدو عبثيًا. نعم، كان العالم سمحًا، وقد أحسّ هو بذلك حقّا حين وجد، بعد أن نظر في ساعته، أنّها لا تزال السادسة، ولهذا كان بوسعه تهنئة الزائر التالي عند الساعة التي ما تزال متاحةً له كي يجلس في صالة استقبال الآنسة فانكورت. وربّما كان بوسعه هو أيضًا استغلال هذه الساعة من أجل زيارة أخرى،

ولكن عند وصوله إلى القوس الرخاميّ باتت فكرة الزيارة تلك غير مستساغة عنده. عبَر من تحت ذلك الصرح العمرانيّ وخطا باتّجاه المنتزه حتّى وصل إلى العشب المنتشر. هنا، واصل مشيه؛ شقّ طريقه عبر المرج النّضر وخرج بموازاة بحيرة سربنتاين. راقبَ بنظراتٍ ودودة تنوّعات أناس لندن، بل إنّه ألقى نظرةً مشجّعة قليلا على السيّدات الشابّات اللواتي يتنزّهن على متن القوارب مع أحبّائهنّ في البحيرة وعلى الجنود، بقبّعاتهم المصنوعة من فرو الدبّ، وهم يدغدغون بلطف الأزهارَ الصناعيّة المثبَّتة على قبّعات يوم الأحد التي ترتديها حبيباتهم. أطال مشيته التأمّليّة؛ ذهب إلى حدائق كنسنغتون، وجلس على أحد المقاعد المتناثرة، وتأمّل القوارب الصغيرة التي تمخر البركة المستديرة وأحسّ بالسرور لعدم وجود مواعيد على العشاء اليوم. واتّجه، في وقت متأخّر جدّا، لتناول العشاء في ناديه، ولكنّه ألفى نفسه عاجزًا عن طلب الوجبة المُقرَّرة فطلب من النادل إحضار أيّ شيء. لم ينتبه البتّة إلى ما قُدّم له، وأمضى المساء في مكتبة النادي، متظاهرًا بقراءة مقال في مجلّة أميركيّة عجز عن استيعاب فحواه؛ إذ بدا، على نحو غريب، كأنّه يتحدّث عن ماريان فانكورت.

في وقتٍ متأخّر من ذلك الأسبوع كتبت له أنّها لن تذهب إلى الريف، لقد سُوّي الأمر. لم يكن أبوها، كما قالت، سيسوّي أيّ شيء، وإنّما ألقى الأمر على عاتقها. شعرت بمسؤوليّتها- كان يجب عليها هذا- وبما أنّها أُرغمت على تحمّل مسؤوليّة الأمر، فقد اتّخذت هذا القرار، ولم تبُح بأسباب، وهو ما منح صديقنا مجالًا واسعًا للتخمين. في «ساحة مانتشستر»، أثناء زيارة الأحد الثانية هذه، كان أقلّ حظًّا، إذ

جاءت برفقة ثلاثة زوّار أو أربعة، ولكن كانت هناك ثلاثة تعويضات أو أربعة؛ ولعلّ أعظمها -وقد علم أنّ أباها غادر المدينة في نهاية المطاف وحده، في آخر لحظة- أنّ ذلك التّخمين الجريء الذي تحدّثتُ عنه السّاعةَ قد ازداد درجةً من الجرأة. فحضورها هو حضورها، وها هي الغرفة الحمراء الشخصيّة موجودةٌ ومفعمةٌ بحضورها، بصرف النظر عن الأطياف التي تعبر وتتلاشى، مُصدرةً أصواتًا لا تعلق بالذّهن. وأخيرًا، خطر له التعلّل بأن يبقى حتّى يصل الجميع ويغادرون، بل أن يؤمن بأنّها ستكون ممتنّةً له على هذا، مع أنّها لم تُبدِ أيّ إشارة. وبعدما باتا وحيدين معًا، عاد إلى محور تركيزه. «ولكنّ سانت جورج جاء حقًا الأحد الماضي. رأيته حينما التفتُّ إلى الخلف».

«نعم؛ ولكنّها كانت المرّة الأخيرة».

«المرّة الأخيرة؟»

«قال إنّه لن يأتي مرّة أخرى».

حدّق فيها پول أوڤرت. «هل يعني أنّه لم يعد يريد رؤيتك؟».

«لا أعلم ما يعنيه»، ابتسمت الفتاة بشجاعة. «على أيّ حال، لن يراني هنا».

«يا إلهي، لمَ لا؟».

«لا علم لي»، قالت ماريان فانكورت التي اكتشف زائرها أنّها باتت أسمى من أيّ وقتٍ سابق على نحوٍ غريب حينما أقرّت بهذا العجز الواضح.

5

«أوه، أقول، أودّ لو تتوقّف قليلًا»، قال له سانت جورج في الساعة الحادية عشرة من الليلة التي يتناول فيها العشاء مع «رأس الكتّاب». كان عدد الحاضرين كبيرًا -ولم يكن أيّ منهم أديبًا في الواقع- وكانوا يوشكون على المغادرة؛ وبعد تمنّي ليلة سعيدة لمضيّفته، مدّ صديقنا الشابّ يده ليودّع سيّد البيت، وعلاوة على الاعتراض الذي سبق أن بدر على لسان هذا الأخير، فإنّ تلك الحركة أثارت كلمةً ثمينة أخرى تشير إلى فرصتهما الآن في تبادل الحديث، وإلى توجّههما نحو غرفته، وإلى أنّ جعبته لا تزال تحوي كلامًا له. غمرت السعادة پول أوڤرت بفعل هذا اللطف، ولكنّه ذكر بالرغم من هذا وبشيءٍ من المرح الخفيف حقيقة أنّه كان قد وعد بالذهاب إلى مكان آخر على مسافة بعيدة من هنا.

«طيّب، ستُخلف وعدك إذن، هذا ما سيحدث. أيّها المحتال البائس!»، أضاف سانت جورج بنبرةٍ عزّزت طمأنينة صديقنا.

«سأُخلفه حتمًا، ولكنّه كان وعدًا حقيقيًا».

«هل تعني أنّه للآنسة فانكورت؟ هل ستلحق بها؟»، سأله صديقه.

فأجاب بسؤال: «أوه، هل هي مغادرة؟».

«دجّال دنيء!»، استرسل مضيّفه في نبرة مزاحه. «لقد تعاملت معك بلطف في خصوص السيّدة الشابّة: لن أقدّم تنازلاً آخر. انتظرني ثلاث دقائق أعود إليك بعدها». وانشغل بتوديع ضيوفه المغادرين، مرافقًا السيّدات المعتادات على هذه الأجواء إلى الباب. كانت ليلةً حارّة، والنوافذ مفتوحة، يُسمَع منها صوت العربات السريعة ونداءات حاملي المشاعل داخل البيت. اشتعلت الأجواء؛ ثمّة جوّ من الاحتفاء يملأ الهواء الثقيل، لم يكن ذلك بسبب تأثير الضيافة وحدها، بل بسبب الإيحاء بانسياب الفرح الفسيح الذي يملأ في ليالي لندن الصيفيّة عددًا كبيرًا من الأحياء الأسعد في المدينة المعقّدة. وشيئا فشيئا خلت صالة استقبال السيّدة سانت جورج، وتُرك پول وحيدًا مع مضيّفته التي شرح لها سبب بقائه. «آه نعم، حديث ثقافيّ، حديث مهنيّ»، قالت بمكر، «ألا يفتقده المرء في هذا الفصل؟ يا لعزيزي هنري المسكين، كم أنا سعيدة!»، أطلّ الشابّ من النافذة للحظات على عربات الأجرة التي دُعيت واصطفّت في الخارج وعلى العربات المغلقة السريعة التي بدأت تبتعد. وحينما استدار كانت السيّدة سانت جورج قد اختفت: ووصله صوت زوجها من تحت، وهو يضحك ويتحدّث في الرّواق مع سيّدة تنتظر وصول عربتها. كانت لپول، على امتداد دقائق عديدة، ملكيّة حصريّة على الغرف الدافئة المهجورة، إذ كانت الأضواء الملوّنة المخفيّة ناعمةً، والمقاعد قد أُبعِدت هنا وهناك، وأريج الأزهار يغمر الهواء. كانت غرفًا كبيرة، غرفًا جميلة، تضمّ متاعًا قيّمًا؛ وكلّ ما في الصورة يُنبئ بـ«بيت جيّد». وبعد مضيّ خمس دقائق جاءت خادمة تخبره بأنّ المعلّم يطلب منه الالتحاق به في الطابق

السفليّ؛ وعلى الفور، نزل الدّرج، وهو يتبع الخادمة التي قادته عبر ممرّ طويل باتّجاه شقّة منعزلة، في الجزء الخلفيّ من البناء، جُعلت لمتطلّبات خاصّة بأديب مشغول، كما تصوّر.

كان سانت جورج يرتدي قميصًا بيتيًّا وسط غرفة كبيرة عالية السقف، غرفة بلا نوافذ، بل بفتحةٍ واسعة في السقف، تشبه تلك الموجودة في صالات المعارض. وكانت مُؤثّثةً مثل مكتبة، ورفوف الكتب المتراصّة تصل إلى السقف، إنّه مشهد ذو جوٍّ فريد ترسمه «الأغلفة» المُعتمة وتقاطعه هنا أو هناك لوحة أو رسومات قديمة معلّقة. وفي أقصى نهاية الغرفة بمواجهة باب الدخول مكتب طويل، يعجّ بالمحتويات، على نحو يعجز فيه الشخص الذي يودّ استخدامه عن الكتابة إلاّ وهو منتصب كموظّف في مكتب محاسبة. وقد فرشت على الأرض من الباب إلى المكتب قطعة قماش بسيطة عريضة قرمزيّة، مستقيمة مثل ممرّ حديقة، وهي تكاد تقاربه في الطول، وعلى الفور طفَت في ذهن پول صورةُ المعلّم وهو يذرع هذه القماشة جيئةً وذهابًا خلال ساعات السأم، أي ساعات الإنتاج المرموق. أعطته الخادمة معطفًا، جاكيتًا قديمًا، من خزانة في الحائط، وهي تنحني انحناءة خبيرة، ثمّ خرجت وهي تحمل معطفه الثقيل الذي خلعه. رحّب پول بالمعطف؛ كان من أجل المحادثة، إذ أنّه يعد بالكثير من أمارات الثّقة -ومن الواضح أنّه تلقّى كثيرًا منها- وله مرفقان أدبيّان تراجيديّان. «آه، ها قد صرنا عمليّين، صرنا عمليّين!»، قال سانت جورج وهو يرى ضيفه يقلّب نظراته في أرجاء المكان، «أليس قفصًا كبيرًا ملائما لأدور فيه وأدور؟ لقد ابتكرته زوجتي، وهي تقفل عليّ الباب هنا كلّ صباح».

تنهّد صديقنا الشابّ -كإشارة ثناء- مع شيءٍ من الضّيق. «ألا تفتقد وجود نافذة، مكانٍ تنظر منه إلى الخارج؟».

«افتقدتُ هذا بشكل مؤلم في البداية؛ ولكنّ تقديراتها كانت منصفة. هذا يوفّر الوقت، لقد وفّر لي شهورًا كثيرة في هذه السنوات العشر. أقف هنا، تحت ضوء النّهار -وغالبا مّا يكون في لندن، كما هو معلوم، ضوء ضبابي عتيق- منعزلًا من أجل عملي. لا يمكنني التملّص، وبهذا تكون الغرفة درسًا رائعًا في التركيز. لقد تعلّمت الدّرس، كما أظن؛ انظر إلى تلك الكومة الكبيرة من المسوّدات وستقدّر الأمر». أشار إلى رزمة ضخمة من الأوراق، فوق إحدى الطاولات، لم يتم تنظيمها.

«هل ستُصدر جديدًا..؟»، سأله پول بنبرة لم يُدرك نقص العبارة فيها إلاّ بعدما انفجر رفيقه بضحكة مبتورة.

«أيّها المحتال، أيّها المحتال!» -بدا سانت جورج يستمتع بملاطفته بتلك الكلمة، «ألا تظنّني أعرف رأيك فيها؟»، سأله، وهو يقف هناك داسّا يديه في جيبيه راسمًا نوعًا جديدًا من الابتسامة. وبدا كأنّه سيسمح لمريده الشابّ برؤيته على نحوٍ شاملٍ الآن.

«بالنّظر إلى ما قلتُه، فأنت تعرف في هذه الحالة أكثر ممّا أعرف!»، استجمع الشابّ كلماته للردّ، كاشفًا عن جزءٍ من العذاب في عجزه عن إبداء تقديره الواضح أو شجبه الجليّ.

«صديقي العزيز»، قال المعلّم الذي بات مثيرًا للاهتمام أكثر فأكثر، «لا تتخيّل أنّي أركّز الحديث على كتبي؛ إنّها لا تشكّل موضوعًا

مناسبًا -هذا نهائيّ![1] لستُ سيّئا إلى الحدّ الذي تتصوّره! نتحدّث عنّي، نعم، قليلًا، إن شئت؛ مع أنّني لم أدعُك إلى هنا لهذا السبب. أودّ أن أسألك بشكل ملح عن أمر مّا؛ أقدّر هذه الفرصة التي أُتيحت لنا. لذا اجلس. إنّنا عمليّان، ولكن ها هنا أريكة، كما ترى، فزوجتي ما تزال تكترث لعظامي المسكينة. هي مثل المديرين والموجّهين كلّهم تعلم متى تكون اللحظة المناسبة للراحة». وغاص پول في ركن كنبة جلديّة وثيرة، ولكنّ صديقه بقي واقفًا ليشرح، «إنْ كنت لا تمانع فسنبقى في هذه الغرفة، هذه هي عادتي. من الباب إلى المكتب ومن المكتب إلى الباب. هذا يحرّك مخيّلتي بلطف؛ ثمّ ألا ترى أنّ من الجيّد عدم وجود نافذة تفرّ منها إلهة الإلهام؟ الوضعيّة الأدبيّة التي أكتب فيها (أقف عند المكتب وأُفرغ ما في جعبتي، حين يخطر لي شيء مّا، ثمّ نواصل ما بدأناه) كانت مرهقةً في البداية، ولكنّنا ثبتنا عليها واضعين عينًا على الأمد البعيد؛ فأنت في صحّة أفضل، إن لم تُكسر ساقاك! وبوسعك المضيّ في هذه العادة سنوات أخرى. أوه، ها نحن عمليّان، إنّنا عمليّان!»، كرّر سانت جورج عبارته، وهو يتّجه إلى الطاولة حاملًا بحركة ميكانيكيّة رزمة المسوّدات كلّها. ولكن، أثناء عمليّة رفعه للأوراق، تحوّل اهتمامه إلى أمر آخر بدا منعشًا لبطلنا. شرد لوهلة، وهو يتمعّن أوراق كتابه الجديد، بينما كانت عينا الشابّ تجولان في أرجاء الغرفة من جديد.

«يا إلهي، يا للأمور المبهرة التي كان يمكن أن أنجزها لو كان لي مكان ساحر كهذا أعدّها فيه!»، فكّر پول. كان العالم الخارجيّ، عالم

(1) بالفرنسيّة في الأصل: il ne manquerait plus queça.

الحوادث والقبح، قد أُقصي بنجاح، وداخل هذه الغرفة الآمنة الغنيّة، تحت السّماء الراعية، يمكن لبنات الأفكار، وللرفقة التي تُستَلهَم، أن تشرع في عربدتها تلك. كان ذلك تصوّرًا جميلًا لدى پول أكثر من كونه معاينةً للوقائع الفعليّة، تلك التي كانت نتاجاتها شحيحةً جدّا، إذ سيتسنّى للمعلّم إطلاق العنان لموهبته السّاحرة وميزته الفريدة والاسترسال في تواصل داخليّ ونسج آمال معلّقة أو لعلّها تكون صعبة التّحقّق. فالعلاقة السعيدة به ستكون شيئًا يتواصل بالقفزات، لا بمراحل على التدريج.

«هل تقرؤها حقّا؟ سأل، وهو يضع المسوّدات إثر سؤال پول له عن موعد صدور الكتاب. وحين أجاب الشابّ: «أوه، نعم، دومًا»، شعر بالمرح ثانيةً بفعل شيء التقطه في نبرة تلك العبارة. «تذهب لتزور جدّتك في عيد ميلادها، هذا مناسب جدًا، لاسيّما أنّها لن تعيش إلى الأبد. لقد فقدتْ كلّ مَلَكة وكلّ حاسة؛ لم تعد تُبصر، أو تسمع، أو تتحدّث؛ ولكنّ العواطف المألوفة والعادات الودودة كلّها مرحَّب بها دومًا. إنّك لا تكون قويّا إلا حين تقرؤها حقّا! أنا عجزت عن هذا يا صديقي العزيز. إنّك قويّ، أعلم هذا؛ وهو مجرّد جزء ممّا كنتُ أودّ قوله لك. إنّك بالفعل قويّ جدّا. لقد اطّلعت على نتاجاتك الأخرى، وأثارت اهتمامي جدّا. كان ينبغي أن يخبرني عنها أحد من قبل، شخص يمكن لي أن أثق به. ولكن من ذا الذي يمكن للمرء أن يثق به؟ إنّك على الطريق الصحيحة بشكل رائع، إنّه عمل راقٍ على نحو مؤلم. هل تنوي مواصلة هذه الطريق؟ هذا ما أودّ أن أسالك عنه».

«هل تعني تأليف كتب أخرى؟»، سأله پول، وهو يرفع عينيه عن الأريكة إلى محدّثه الواقف، ويشعر في بعد من أبعاده بأنّه أشبه بطفل صغير تغمره السعادة وهو يرى معلّمه مسرورًا، وفي بُعد آخر بأنّه مثل حاجٍّ من العصور القديمة بعد أن استشار عرّافًا شهيرًا. كان نتاج سانت جورج متعثّرًا، لكنّه يبدو معصومًا من الزّلل حين يكون مستشارًا.

«أخرى، أخرى؟ آه، العدد لا يهمّ؛ كتاب آخر سيَفي بالغرض، إذا كان له أن يشكّل خطوةً إلى الأمام فعلًا، ضربة أخرى على المنوال ذاته. ما أعنيه هل تسعى بكلّ قلبك إلى المضيّ في طلب كمال سامٍ؟».

«آه، السموّ، آه، الكمال!»، تنهّد الشابّ بصدق. «تحدّثت عنهما الأحد الماضي مع الآنسة فانكورت».

أثار الردّ لدى المعلّم ضحكةً لاذعةً غريبة. «نعم، «سيتحدّثون» عنهما بقدر ما تحبّ! ولكنّهم لن يفعلوا الكثير لمساعدة المرء على بلوغهما. لن أفرض عليك، بطبيعة الحال، شيئًا؛ ولكنّك تبدو لي قادرًا على هذا»، واصل كلامه. «لا شكّ أنّك أمعنت في التفكير بالأمر. لا أصدّق أنّك تمضي بلا خطّة. هذا هو الإحساس الذي وصلني منك، وهو نادرٌ جدًا حتّى إنّه ليرغم المرء على المبادرة، وهذا ما يجعلك مميّزًا. إذا كنت لا تملك خطّة، وتنوي مواصلة السعي، فهذا حقّك بكلّ تأكيد؛ هذا ليس من شأن أيّ شخص آخر، لن يرغمك أحد على فعل ما لا تريد، ولن ينتبه أكثر من شخصين أو ثلاثة إلى أنّك

لا تواصل تقدّمك. أمّا الآخرون، البقيّة كلّهم، كلّ روح مباركة في إنكلترا، فسيظنّون أنّك تفعل هذا، أنّك تواصل تقدّمك في طريقك: وشرفي سيفعلون! سأكون واحدًا من الشخصين أو الثلاثة الذين سيُدركون حقيقتك. والسؤال الآن هو أكان بوسعك أن تفعلها من أجل شخصين أو ثلاثة؟ هل هذا هو ما جُبلت عليه؟».

كبّلَ السؤال ضيفه دقيقةً كأنّه بين ذراعين قويّتين مضمومتين. «بوسعي أن أفعلها من أجل شخص واحد، إنْ كان أنت».

«لا تقل هذا؛ أنا لا أستحقّ ذلك؛ هذا يُحرقني»، قال محتجًا وقد أصبحت عيناه وقورتين برّاقتين فجأة. «هذا «الواحد» هو ذات المرء طبعًا، ضمير المرء، فكرة المرء، فرادة هدف المرء. أفكّر بتلك الرّوح النقيّة مثلما يفكّر رجل بامرأة كان قد أحبّها في ساعةٍ بغيضةٍ من شبابه ثمّ هجرها. تزوره دومًا بعينين لائمتين، تعيش أمام عينيه إلى الأبد. من موقع الفنّان، كما تعلم، تزوّجتُ من أجل المال». حدّق فيه پول مصعوقًا بل تورّد وجهه في شيءٍ من الحرج، حين لطمه هذا الاعتراف؛ بينما أطلق مضيّفه، وهو يراقب تعابير وجهه، ضحكةً سريعةً ثمّ تابع كلامه: «أنت لم تفهمني. أنا لا أتحدّث عن زوجتي العزيزة التي لم تكن تملك غير ثروة صغيرة، إنّها لم تكن تمثّل رشوة بالنسبة إليّ في مطلق الأحوال. لقد وقعتُ في حبّها، كما فعل كثيرون. أنا أعني ربّة إلهام الارتزاق التي أخذتها إلى مذبح الأدب. يا ولدي، لا تُدخل أنفك في ذلك القيد أبدًا. فتلك العاهرة البغيضة ستقودك طوال حياتك!».

راقبه بطلنا، متعجّبًا ومتأثّرًا بعمق: «ألم تكن سعيدًا!».

«سعيدًا؟ إنّه نوع من الجحيم».

«ثمّة أمور أودّ أن أسألك عنها»، قال پول بعد أن صمت برهة.

«اسألني ما شاء لك السّؤال. لقد كشفتُ كلّ ما في داخلي كي أنقذك».

«كي «تنقذني»»؟، سأل.

«كي أجعلك تتشبّث بالأمر، كي أجعلك تتمعّن فيه. وكما قلتُ لك في تلك الليلة في سمرسوفت، فلأكُن أنا مثالك الواضح».

«ولكنّ كتبك ليس رديئةً جدًا مثل هذا»، قال پول بصراحة مرحة وهو يفكّر في أنّ أحدًا لم يتنفّس هواء الفنّ كما فعل سانت جورج..!

«رديئة جدًا مثل ماذا؟».

«موهبتك عظيمةٌ جدًّا حتّى إنّها تظهر في كلّ ما أنجزتَه؛ في ما هو أقلّ جودة، وفي ما هو الأفضل، لديك ما يقارب أربعين كتابًا لتبرهن على هذا، أربعين كتابًا من الحياة الرائعة، من الملاحظة الثّاقبة النادرة، من المقدرة الهائلة».

«أنا ذكيّ جدًا، أعرف هذا بطبيعة الحال»، ولكنّ ذلك كان، باختصار، أمرًا لم يُفِد هذا المؤلّفُ منه. «يا إلهي، كم كانت ستتعفّن لو لم أكن دجّالًا ناجحًا»، واصل كلامه، «كنتُ قادرًا على نقل منظومتي. ولكن هل تعرف ماهيّتها؟ إنّها «ديكور كرتونيّ»»[1].

(1) بالفرنسيّة في الأصل: cartonpierre. [العبارة تعني «حجر كرتونيّ» حرفيًا، بمعنى الديكورات الكرتونيّة التي يستعيضون عن الحجر والخشب بها].

«ديكور كرتوني؟»، تساءل پول مصعوقًا فاغرًا فاه.

«ديكورات والتون المبهرجة!»[1].

«آه لا تقل مثل هذه الأشياء، أنت تجرحني!»، احتجّ الشابّ، «أراك في بيت ميسور جميل، تحيا براحة وشرف».

«هل تسمّي هذا شرفًا؟»، فاجأه مضيّفه بنبرةٍ تملأ صوته، «هذا ما أريد منك أن تبلغه، أعني الشيء الحقيقيّ، أمّا هذا فليس إلاّ زيفًا».

«زيف؟»، صاح پول وعيناه تجولان، بحركة طبيعيّة في تلك اللحظة، بأرجاء الغرفة المترفة.

«أوه، إنّهم يلفّقونه ببراعة هذه الأيّام، إنّه خادع على نحو رائع!».

اشتعل صديقنا فضولاً وإثارةً، بل لعلّه اشتعل أكثر بالشّفقة أمام كلّ هذا. ومع ذلك لم يخش أن يبدو مترفّقًا بالرجل وإن كان أمامه متّسع ليحسده إلى حدّ بعيد. «هل هو خادع أن أجدك تعيش في كلّ مظهر من مظاهر الهناء العائليّ، مُنعّمًا بزوجةٍ مخلصة لها مكانتها، وبأطفال لم أحظَ بعد بسرور لقائهم، ولكن لا شكّ أنّهم شباب مبتهجون، بالنظر إلى ما أعرف عن أبويهما؟».

ابتسم سانت جورج لصراحة سؤاله، «الوضع كلّه ممتاز يا صديقي العزيز، لن أنكر هذا لا سمح الله. جمعتُ ثروة ماليّة كبيرة؛ زوجتي بارعة في التكفُّل بها، في استثمارها من دون تبديدها، في ادّخار جزء منها، في جعلها تُثمر. لديّ خبزي، لديّ كلّ شيء في الحقيقة ما عدا الأمر العظيم».

---

(1) في الأصل: Lincrusta-Walton، ولينكروستا نمط فنّي لتزيين الجدران ابتكره فريدريك والتون عام 1860.

«الأمر العظيم؟»، كرر پول عبارات المعلّم.

«الشعور بأنّك أنجزتَ العمل الأفضل، الشعور الذي يشكّل حياة الفنّان الحقيقيّة، ذاك الذي يعني غيابُه موتَه، أنّك استخلصتَ من أداته الثقافيّة أروع موسيقى اختزنتها الطبيعة داخلها، أنّك عزفت عليها كما ينبغي لك أن تعزف. إمّا أن يفعل هذا وإمّا فلا، وإنْ لم يفعل فإنّه لن يستحقّ أن يُذكَر. ولذلك، وعلى وجه الدقّة، فإنّ مَنْ يميّزون حقّ التّمييز لن يذكروه في حديثهم. لعلّه سيظلّ يسمع لغوًا كثيرًا، ولكنّ معظم ما يسمعه ليس إلاّ صمت الشّهرة الصادق. لقد عدّلتها، إذا أمكنني القول، على ساعتي الصغيرة، ولكن ماذا تشكّل ساعتي الصغيرة؟ لا تتخيّلْ ولو للحظة»، واصل المعلّم كلامه، «أنّني وغد إذ جئت بك إلى هنا كي أقرّع زوجتي أو أتذمّر منها أمامك. هي امرأة ذات مزايا فريدة، أدين لها بالكثير؛ ولذلك، من فضلك، لن نذكرها في حديثنا. أبنائي -أطفالي جميعهم ذكور- أصحّاء وأقوياء، والحمد لله، وهم لا يشتكون علّة جسديّة، أو فاقة. أتلقّى دوريًا أفضل التقييمات من كليّة هارو، وجامعة أكسفورد، وأكاديميّة ساندهرست العسكريّة -أوه لقد منحناهم أفضل ما لدينا!- بشأن تميّزهم كفتيان يضجّون بالشغف والسّعي والحيويّة».

«لا شكّ أنّ من المبهج للمرء رؤية ابنه في ساندهرست»، قال پول بحماس.

«بالتأكيد، هذا ساحر. أوه، كَمْ أنا وطنيّ!».

ولم يكن في وسع الشابّ إلاّ أن يُبدي امتنانه بطرح أسئلة. «إذن

ما الذي كنت تعنيه -في تلك الليلة في سمرسوفت- بقولك إنّ الأطفال لعنة؟».

«عزيزي الشابّ، ما الأساس الذي بنينا عليه كلامنا؟»، وجلس سانت جورج على الأريكة قريبًا منه. ولمّا كان يجلس على نحوٍ مائل تقريبًا فقد أسند ظهره إلى طرف الأريكة وشبك ذراعيه خلف رأسه. «على افتراض أنّ كمالًا بعينه أمرٌ ممكن، بل مُستحَبّ، أليس كذلك؟ طيّب، كلّ ما أقوله هو أنّ أطفال المرء يقيّدونه عن الكمال. تقيّده زوجته. يقيّده الزواج».

«تظنّ إذن أنّ على الفنّان ألاّ يتزوّج؟»

«يفعل هذا وهو يجازف، يفعل هذا فيقلّل حظوظه».

«حتّى إذا كانت زوجته منسجمة مع عمله؟».

«لن تكون أبدًا، لا يمكنها أن تكون! ليس لدى النّساء تصوّرات عن هذه الأمور».

«ولكنّهنّ يعملن في المجال ذاته أحيانًا»، اعترض پول.

«نعم، ولكن بمستوى رديء. أوه، هنّ يعتقدنَ في الغالب، بطبيعة الحال، أنّهنّ يتفهّمن، يعتقدنَ أنّهنّ يتوافقنَ. هنّ بالذات مصدر الخطر الأكبر. تتمحور فكرتهنّ حول وجوب أن تعمل بكدّ وتجني مالاً كثيرا. أقصى نبلهنّ وفضائلهنّ، أقصى وعيهنّ النموذجيّ، من حيث هنّ نساء بريطانيّات، هو في إبقائك أهلًا لهذا. تُبرم زوجتي تعاقداتي كلّها مع الناشرين بدلًا منّي، ولقد

فعلت هذا طوال عشرين عامًا. وهي تفعل ذلك ببراعة فائقة، ولهذا أنا بعيد عن تلك الأمور كليّا. ألستَ أنت أبا أطفالكما البريئين، وهل ستحرمهم من حقّهم الطبيعيّ في القوت؟ سألتَني تلك الليلة عمّا إذا لم يكونوا هم ذاتهم حافزا هائلًا. بلى إنّهم كذلك، ما في هذا شكّ!».

قلّب پول الأمر في ذهنه، كان عليه أن يُمعن النّظر طويلًا في عينين لم يرهما مفتوحتين بمثل ذاك الاتساع من قبل، «أمّا أنا فمتأكّد من أنّني بحاجة إلى محفّزات».

«آه، حسنًا إذن، ما من داع لاستمرارنا في الكلام!»[1]، ابتسم صديقه برقّة.

«أنت محفّزي، أؤكّد لك»، واصل الشابّ حديثه. «أنت لا تؤثّر فيّ على النّحو الذي يبدو أنّك تودّ أن تفعله. كلّ ما أراه هو نجاحك العظيم، أُبّهة حدائق إنسمور!».

«النجاح؟»، التمعت عينا سانت جورج ببريق بارد لطيف. «هل تعتبر أنّ من النّجاح أنْ تكون محور حديث مثلما ستجعلني هذا المحورَ لو كنتَ جالسًا هنا مع فنّان آخر، شابّ ذكيّ وصادق مثلك؟ هل تعتبره نجاحًا لو تورّدت خجلًا- كما ستتورّد أنت!- لو أنّ ناقدًا أجنبيًا (وأعني، بطبيعة الحال، شخصًا يعرف ما يتحدّث عنه ويمكنه أن يثبت لك أنّه يعرف، كما يحبّ النقّاد الأجانب أن يُبيّنوا دومًا) قال لك: «ها هو الوحيد الذي نعدّه الأكمل بينهم في هذا البلد، أليس

(١) بالفرنسيّة في الأصل: n'enparlons plus!.

كذلك؟» هل يكون نجاحًا لو كنتَ السبب الذي يدفع شابًا إنكليزيًا إلى التلعثم كما ستتلعثم أنت في لحظةٍ كهذه من أجل إنكلترا العريقة؟ لا، لا؛ النجاح هو أن تجعل الناس يتمايلون على لحن آخر. جرّب هذا فعلا!».

واصل پول تورّده الحارق، «أجرّب ماذا؟».

«جرّب أن تُنجز عملًا جيّدًا بالفعل».

«أوه، أودّ فعل هذا، وحقّ السماء!».

«حسنًا، لن يمكنك فعله بلا تضحيات، لا تتصوّر غير هذا ولو لحظة»، قال المعلّم. «لم أقدّم أيّ تضحية. لديّ كلّ شيء. وبمعنى آخر فقدتُ كلّ شيء».

«لديك الحياة العامة بأسرها، وهي غنيّةٌ ورجوليةٌ وإنسانيّة، مع جميع المسؤوليّات والواجبات والأعباء والتفجّعات والمسرّات، لديك البدايات والتعقيدات العائليّة والاجتماعيّة كلّها. لا شكّ أنّها موحيةٌ جدًا، ممتعةٌ إلى أبعد الحدود»، قال پول بقلق.

«ممتعة؟».

«لرجلٍ قويّ، نعم».

«لقد منحَتْني مواضيع لا حصر لها، إنْ كان هذا ما تعنيه؛ ولكنّها حرمتني في الوقت ذاته القوّةَ لاستثمار تلك المواضيع. لمستُ ألف شيء، ولكنْ ما الذي حوّلتُه منها إلى ذهب؟ ينبغي للفنّان ألاّ ينشغل بغير هذا، ينبغي له ألاّ يتعامل مع أيّ معدن أدنى من الذهب.

كنتُ في طليعة الحياة الدنيويّة، مع زوجتي وأبنائي؛ حياة لندن الخرقاء التقليديّة الباهظة الماديّة السوقيّة الوحشيّة. حصلنا على كلّ ما هو جميل، لدينا عربتنا الخاصّة، نحن أناس ماديّون إلى أبعد حدّ ومرموقون مضيافون أثرياء. ولكن، يا صديقي العزيز، لا تحاول خداع نفسك وتتظاهر بأنّك لا تعرف ما لا نمتلكه. إنّه أكبر من بقيّة الأشياء كلّها. بين الفنّانين، هيّا!»، صاح المعلّم بغضب. «تعرف تمام المعرفة وأنت جالس هنا أنّك كنتَ ستُصوّب رصاصةً إلى دماغك لو كنتَ قد ألّفتَ كتبي!».

ما صدمَ ضيفَه هو أنّ الحديث الهائل الذي كان قد وعد به في سمرسوفت تحقّق الآن، بأقصى سرعة، ولم يكن خياله الشابّ ليتوقّع نتيجته. صعقه انطباعه، وطوّقته الإثارة بفعل هذه الكلمات العميقة والثقة الغريبة. بل طوّقه الصراع المحتدم في مشاعره؛ الذهول والإدراك والتنبّه، الاستمتاع والاحتجاج والتّسليم، وقد امتزجت كلّها بالحنوّ وشيءٍ من عار المشاركة في الآلام والأوجاع التي تسبَّب فيها لهذا الرجل الرائع، وإحساسٍ بوجود سرٍّ مأسويّ يُخفيه في أعماقه. لقد جعلته حقيقةُ أنّ فكرته تسبّبت في هذا الإحساس بالذلّ يرتبك ويشحب، في الوقت الذي كان فيه وعيه، في بعض جوانبه، شديد التيقّظ على نحوٍ لا يمكن له معه أن يبتلع -أو حتّى أن يهضم- كلّ جرعة من جرعات ذلك البوح. لقد دفعه حظّه العاثر إلى الغوص في المياه العميقة، في جعلها تجيش وتتفجّر أمواجًا من الفصاحة الغريبة. ولكن كيف له ألّا يُبدي اعتراضًا حماسيًا على عبارة مضيّفه الأخيرة، كيف لا يعدّد له أجزاء عمله التي أحبّها، والأمور المذهلة التي

اكتشف فيها ما لم يجده لدى أيّ كاتب معاصر آخر؟ وأنصت سانت جورج وهلة، بلباقة، ثمّ قال وهو يضع يده على يد ضيفه: «هذا ممتاز كلّه؛ وإنْ لم تكن تسعى إلى فعل ما هو أفضل فلن يكون هناك أدنى مانع في حصولك على أمور رائعة كثيرة كما حصلتُ أنا عليها، كلّ ما تشتهيه من ممتلكات بشريّة وماديّة، أبناء وبنات بقدر ما تشتهي، زوجة بكامل ملابسها الجميلة، بيت بخدم كثيرين، إسطبل بخيول لا حصر لها، قلب بآلام لا نهاية لها». وقف المعلّم بعدما نطق هذا- تجمّد في وقفته لحظة- قرب الأريكة موجّهًا نظراته إلى تلميذه المرتبك. «هل لديك ممتلكات؟»، خطر له أن يسأله.

«لا شيء يستحقّ الذكر».

«أوه، طيّب، ما من مانع يعوقك حينئذ عن تكوين دخل ممتاز متى وضعت نفسك في الطريق الصحيحة. اجعلني أنا مثالًا لك، ادرسني جيّدًا. ولعلّك تحظى ولو بأحصنة».

جلس پول هناك دقائق عديدة من غير أن ينطق كلمة. اكتفى بالتّحديق الصامت، يقلّب أفكارًا شتّى في ذهنه. كان صديقه قد خطا مبتعدًا، ثمّ التقط رزمة رسائل من الطاولة حيث تقع كومة المسوّدات. «ما الكتاب الذي جعلتكَ السيّدة سانت جورج تحرقه، ذلك الكتاب الذي لم تُحبّه هي؟»، بادره الشابّ متسائلًا.

«الكتاب الذي جعلتني أحرقه، كيف عرفت هذا؟»، نظر المعلّم من فوق الرسائل ولكن دون أن ترتسم على محيّاه أيّ علامة من علامات التّشنّج التي كان التّلميذ يخشى أن يراها.

«سمعتها تتحدّث عنه في سمرسوفت».

«آه نعم، هي فخوره بهذا. لا أدري، كان كتابًا جيّدًا».

«ما كان موضوعه؟».

«دعني أتأكّد»، وبدا أنّه يبذل جهدًا للتذكّر، «آه نعم، كان عنها هي». أطلقَ پول آهة عجز عن كتمها بسبب اختفاء مثل هذا النّتاج، وتابع المعلّم كلامه: «أوه، ولكن ينبغي لك أنت أن تكتبه، ينبغي لك أنت أن تحلّ محلّي». ثمّ انتفض، متخلّصًا من الاضطراب الذي انتابه. ورسم ابتسامة واسعة ودودة، «هذا يا بنيّ موضوع ليس للأفكار فيه نهاية!».

خيّم الصمت على پول من جديد، ولكنّه كان صمتًا مؤلمًا. «أما من نساء يتفهّمن حقًا، ألا يمكن لهنّ أن يشاركن من جهتهنّ في التضحية؟».

«كيف يمكن لهنّ أن يشاركن؟ هنّ التضحية ذاتها. هنّ الصنم والمذبح واللهب».

«أليست هناك واحدة ذات بصيرة أعمق؟»، تابع پول.

بقي سانت جورج صامتًا للحظات، وبعد أن مزّق الرسائل، عاد إلى الحديث بكلّ سخريته، «أنا أعرف، بطبيعة الحال، من تقصد. ولكنْ حتّى الآنسة فانكورت لن تكون تلك المرأة».

«كنتُ أظنّك تحترمها جدًا».

«ليس هناك حقّا مجالٌ لاحترامها أكثر. هل أنت واقع في حبّها؟»، سأله سانت جورج.

«نعم»، أجاب پول أوقرت على الفور.

«حسنًا إذن، تخلَّ عنها».

حدّق پول، «أتخلّى عن «حبّي»؟».

«لا، يا رحمة الله، تخلّ عن فكرتك». ثمّ أضاف وبطلنا لا يزال على ذهوله، «الفكرة التي تحدّثت إليها بشأنها. فكرة الكمال الراقي».

«ستساعدني عليها، ستساعدني عليها!»، صاح الشابّ.

«لسنة واحدة تقريبًا، السنة الأولى، نعم. وبعدها ستكون مثل حجر رحى[1] حول عنق الفكرة».

تساءل پول بتعجّب صريح: «ياه، ولكنّها تُبدي شغفًا بما هو حقيقيّ، بالعمل الجيّد، بكلّ ما أهتمّ به أنا وأنت».

«عبارة «أنا وأنت» ساحرة، يا صديقي العزيز!»، قال صديقه ضاحكًا، «هي تملك ذاك الشغف حقّا، ولكن سيكون لديها شغف أكبر بأطفالها، وهو شغف محترم أيضًا. ستصرّ على أن يكون كلّ شيء مريحًا ومثمرًا ومُساعِدًا لهم. ولكنّ هذا ليس من شأن الفنّان».

«الفنّان، الفنّان! أليس بشرًا مثل الجميع؟».

(1) تشبيه من الكتاب المقدس (اصحاح 18: 1-16): «يعلق حجر رحى في عنقه ويغرق في لجة البحر».

رسم سانت جورج تكشيرةً كبيرة. «الحقّ أنّي لا أظنّ هذا. وأنت تعلم كما أعلم ما عليه فعله: التركيز، الإنجاز، الاستقلاليّة التي لا بدّ أن يسعى إليها ابتداءً من لحظة انطلاقه في تمنّي أن يكون عمله راقيًا حقّا. آه، يا صديقي العزيز، إنّ علاقته بالنّساء، وخصوصًا بتلك المرأة التي يُبدي لها أقصى شغفه وحميميّته، ستكون تحت رحمة الحقيقة اللعينة وهي أنّه أثناء الظروف الطبيعيّة لن يكون لديه إلاّ مسعى واحد، ولكنّ لديهما معًا ما يقارب خمسين. هذا ما يجعلهما متفوّقين أكثر»، أضاف سانت جورج بمرح. «تخيّل فنّانًا يغيّر مساعيه كما تغيّر أنت قمصانك وصحون العشاء. أن تحقّقه -أن تحقّقه وتجعله مقدّسًا- هذا هو الأمر الوحيد الذي ينبغي له التفكير فيه. «هل تحقّق أم لا؟»هذا هو سؤاله الوحيد. وليس «هل تحقّق مع عناية ملائمة تسمح بها عائلتي الصغيرة العزيزة؟» ما من شيء يربطه بالنسبيّ، كلُّ ما يشغله هو المطلق؛ والعائلة الصغيرة العزيزة قد تمثّل دزينة نسبيّات».

«إذن أنت لا تسمح له بالمشاعر والعواطف المألوفة التي يمتلكها جميع البشر؟»، سأله پول.

«أليس لديه شغف، تعلُّق، يتضمّن تلك المشاعر الباقية كلّها؟ ولكن، ليكن لديه كلّ المشاعر التي يرغب فيها، شرط أن يُحافظ على استقلاليّته. يجب أن يكون قادرًا على أن يكون فقيرًا».

نهض پول ببطء، «لمَ نصحتني بالتقرّب منها آنذاك؟».

وضع سانت جورج يده على كتفه، «لأنّها ستكون زوجة رائعة! ولم أكن قد قرأت كتابك حينذاك».

رسم الشابّ ابتسامةً مرهقة، «تمنّيت أنّك تركتني وشأني!».

«لم أكن أعلم أنّ ذلك لا يكفيك»، ردّ مضيّفه.

«يا له من موقع خاطئ، يا لها من لعنة على الفنّان، إنّه مجرّد راهب محروم لا يمكن له أن يُنجز أيّ شيء إلاّ بالتخلّي عن السعادة الشخصيّة. يا لهذا الاتّهام للفنّ!»، واصل پول كلامه بصوت مرتعش.

«ولا يمكنك أن تتصوّر ولو لحظة أنّي أدافع عن الفنّ؟» «اتّهام»، أظنّ هذا أيضًا. سعيدةٌ هي المجتمعات التي لم يظهر فيها الفنّ، فمنذ اللحظة التي يُعلن فيها عن وجوده ستعاني من ألم مبرّح، ستعاني من علّة لا براء منها، في صدورها. ومن المؤكّد حتمًا أنّ الفنّان في موقع خاطئ! ولكنّني ظننتُ أنّنا سلّمنا بشأن الفنّان. اعذرني»، واصل سانت جورج. «جنستريلا أرغمتني على قول هذا!».

وقف پول ينظر إلى الأرض، دقّت الساعة رنّة واحدة، في الصمت، من برج كنيسة مجاورة. «هل تظنّ أنّها قد تنظر إليّ يومًا؟»، قال لصديقه أخيرًا.

«الآنسة فانكورت، باعتبارك خاطبا؟ ما كان لي أن أفكّر بغير هذا؟ ولهذا السبب حاولتُ الرفع من أسهمك، أُتيحت لي فرصة أو اثنتان لتقوية حظوظك».

«اعذرني في هذا السؤال، ولكن هل تعني أنّك فعلتَ هذا بإقصاء نفسك؟»، سأله پول وقد تورّد وجهه.

«أنا أحمق عجوز، مكاني ليس هناك»، قال سانت جورج بصرامة.

«مازلت لا أملك أيّ شيء، ليست لديّ ثروة؛ ومن المؤكّد أنّ هناك آخرين كثيرين»، واصل صديقه الشابّ الكلام.

فكّر سانت جورج بالأمر قليلًا، ولكنّه نفض الفكرة في الحال. «أنت جنتلمان ورجل عبقريّ. أظنّ أنّ بوسعك فعل شيء مّا».

«ولكن سيتحتّم عليّ أن أتخلّى عنها، العبقريّة؟».

«هناك أناس كثيرون، كما تعلم، يظنّون أنّني حفظتُ عبقريّتي»، ابتسم سانت جورج بمرح.

«لديك عبقريّة في الغموض!»، قال پول، ولكنّه شدّ قبضته بلطف ليخفّف من وقع العبارة.

«يا ولدي العزيز المسكين، أقلق عليك فعلًا! ولكن جرّب، جرّب، في جميع الأحوال. أظنّ أنّ فرصك جيّدة وستنال جائزةً عظيمة».

شدّ پول على يد المعلّم دقيقة؛ وأمعن النّظر في الوجه العميق الغريب، «لا، أنا فنّان، أعجز عن إقصاء هذا منّي».

«آه، أثبتْ هذا إذن!» هتف سانت جورج متضرّعًا، «دعني أشهد قبل موتي أقصى ما أتمنّاه، الأمر الذي أتوق إليه: حياة يكون فيها الشغف- شغفنا- كثيفًا حقّا. إنْ كنت تستطيع أن تكون فريدًا فلا تُضيّعنّ الفرصة! فكّر بماهيّة الأمر، كيف تحقّقه، كيف تحافظ على جذوة الحياة فيه!».

تحرّكا نحو الباب، ووضع كفّيه كليهما حول كفّي صديقه. وهنا توقّفا مرّة أخرى فتنهّد صديقنا بقوّة، «أودّ أن أعيش!».

«بأيّ معنى؟».

«بأعظمها».

«تشبّث بها إذن، عشها بجميع تفاصيلها».

«مع تعاطفك، مع مساعدتك؟».

«اعتمد على هذا، أحسب أنّك ستكون شخصًا عظيمًا. عوِّل على أعظم تقديراتي لك، على إخلاصي. ستُشعرني بالرضى، إنْ كان لهذا أيّ قيمة عندك»، وبعد هذا، وبينما كان پول يواصل تردّده، أردف مضيّفه: «هل تتذكّر ما قلته لي في سمرسوفت؟».

«شيء على صلة بالشغف، بلا شكّ!».

«سأفعل كلّ ما تقوله لي.» أنتَ قلتَ هذا».

«وهل تضمن أنّي سأفعل؟».

«آه، ومن أنا؟» تنهّد المعلّم بقوّة.

«يا إلهي، ما أكثر الأشياء التي يجب عليّ فعلها!»، أوشك پول على النّواح وهو يغادر.

6

«كثيرا مّا تجري أحداثها في الخارج، متعلّقة بالخارج!»، تلك الكلمات أو ما يماثلها كانت كلمات المعلّم المميّزة في ما يخصّ أحداث رواية جنستريلا؛ لكن، ومع أنّها خلّفت انطباعًا عميقًا في داخل مؤلّف ذلك الكتاب، تقريبًا كما فعلت جميع الكلمات الصادرة عن المصدر ذاته، فإنّه غادر إنكلترا بعد أسبوع من المحادثة التي أدرجتُها الساعةَ في رحلة غياب طويلة مُفعَمًا بالنوايا الجريئة. ولن يكون تحريفًا للحقيقة إذا اعتبرنا تلك المواجهة سببا مباشرا في سفره. وإنْ كان لكلمات المعلّم المرموق الشفهيّة فضلٌ حثّه بشدّة فإنّها وهبته، لاسيّما عندما قلّبها في ذهنه على مهل بعد ساعات وأيّام، معناها الكليّ وبيّنت له أهميّتها القصوى. أمضى فصل الصيف في سويسرا، وقرّرَ، بعد أن بدأ مشروعًا جديدًا في سبتمبر، ألّا يعبر جبال الألب حتّى يُنجز انطلاقةً جيّدة في مشروعه ذاك. ولهذه الغاية التجأ إلى ركنٍ هادئ يعرفه جيّدًا، عند حافّة بحيرة جنيف على مقربة من أبراج قلعة شيلون: منطقة ومشهد يثيران مشاعر تنداح من ذكريات قديمة، مشاعر لها قدرة على العودة وتجديد نفسها على نحو غريب. وبقي هناك إلى وقت متأخّر، حتّى تراكم الثّلج على التّلال القريبة، ووصل تقريبًا إلى القمّة التي يمكن له تسلّقها، بعد أن أنجز مهمّته في أوقات

الظّهيرة المتناقصة. كان الخريف جميلًا، وكانت البحيرة زرقاء وبات لكتابه بنية واتّجاه. لقد لوّنت لحظات الهناء هذه حياته الآن، حياته التي جاهد كي يجعلها تلفّه بعباءتها بالكامل. ومع نهاية الأسابيع الستّة حفظ درس سانت جورج عن ظهر قلب، عايش مغزاه وأثبته. ومع ذلك قام بفعلٍ لا ينسجم مع هذا المخطّط: قبل عبوره جبال الألب كتب رسالة لماريان فانكورت. كان يدرك شطَطَ هذا الفعل، وكان الفعل مجرّد ترف، تسلية، مكافأة على خريف عسير، يبرّر له ما فعل. لم تكن قد طلبت منه أمرًا كهذا حينما توجّه -قبل أن يغادر لندن بوقتٍ وجيز، بعد ثلاثة أيّام من تناوله العشاء في حدائق إنسمور- كي يودّعها. والحقّ أنّها لم تكن تملك أدنى فكرة عمّا يفكّر فيه، إذ لم يفصح عن نيّته في الرحيل. وقد احتفظ بها في داخله من أجل تأكيدٍ أكبر: كانت تلك الزيارة ذاتها هي الأمر الآخر الذي سيحسم المسألة. أدّى تلك الزيارة ليرى مدى تعلّقه بها فعلًا، وكان الرحيل السريع، من غير إبداء علامات وداعٍ صريح، هو الجزء الثاني من هذا السؤال الذي كانت إجابته قد ولّدت داخله حنينًا عميقًا. عندما كتب إليها من قرية كلارنس السويسريّة انتبه إلى أنّه يدين لها بتفسير (بعد أكثر من ثلاثة أشهر!)، لأنّه لم يخبرها بما كان يفعل.

ردّت الآن بإيجاز ولكن بسرعة، ونقلت إليه خبرًا صاعقًا: وفاة السيّدة سانت جورج قبل أسبوع. عانت تلك المرأة النموذجيّة، في الريف، نوبة عنيفة من التهاب الرئتين، يتذكّر أنّ صحّتها كانت هشّة منذ وقت طويل. وأضافت الآنسة فانكورت أنّها على يقين من معاناة زوجها بسبب تلك الصّدمة القاسية؛ سيشتاق إليها كثيرا، لقد

كانت تمثّل له كلّ ما في الحياة. وهنا بادر پول أوڤرت على الفور بكتابة رسالة إلى سانت جورج.

كان منذ يوم فراقهما سعيدًا لأنّ التّواصل سيستمرّ بينهما، ولكنّه لم يجد منذ تلك اللحظة عذرًا مناسبًا لإزعاج مثل هذا الرجل المشغول. عاوده حديثهما الليليّ بتفاصيله كلّها، ولكن ما كان لهذا أن يحول دون تعاطف لائق مع «رأس الكتّاب»، أَوَلَمْ يوضّح ذلك الحديث ذاته أنّ السيّدة المرموقة الراحلة هي مصدر التأثير الذي رتّب حياته بأسرها؟ ما الكارثة التي يمكن أن تكون أقسى من تلاشي مثل هذا التأثير؟ وتلك كانت بالضّبط نبرة سانت جورج في الردّ على صديقه الشابّ بعد مضيّ شهر. لم يُشر، بطبيعة الحال، إلى أيّ تفصيل من تفاصيل نقاشهما المهمّ. تحدّث عن زوجته بصراحة وسماحة كما لو أنّه نسي تلك الحادثة برمّتها، وقد كان شعور الحرمان العميق جليًّا في كلماته. «أخلَتْ كلّ شيء من يديّ، من ذهني. واصلتْ حياتنا بأقصى براعة، وبأشدّ درجات الإخلاص، وكنتُ متفرّغًا للإمساك بقلمي تفرّغا لا يُتاح إلاّ لرجال قليلين، كنت في تمام التفرّغ لعملي. وكانت تلك خدمة نادرة، إنّه أقصى ما بوسعها أن تمنحني إيّاه. كَمْ كان ينبغي لي أن أعترف بهذا على نحوٍ لائق أكثر!».

أصابت هذه الملاحظات بطلنا بالحيرة والذهول، فقد صدمه ما فيها من تناقض ونكوص، إذ من الغريب أن ترد مثل هذه الملاحظات على لسان رجل لم يكن لديه أدنى عُذر في أن يكون غبيًا. لم يكن، بالتأكيد، يتوقّع من معلّمه أن يبتهج لموت زوجته، وسيبدو من الطبيعيّ تمامًا أن يكون انفصام عرى علاقة ممتدّة على مدى أكثر من

عشرين عامًا سببًا في أساه. ولكن لو أنّها كانت تمثّل رحمةً إلى هذا الحدّ فما الذي كان الرجل العزيز -بحقّ التناغم- يقصده من قلب أفكاره رأسًا على عقب تلك الليلة، بل ما الذي يقصده من حقنه إلى ذاك الحدّ، في أقصى ساعات حياته حساسيّةً، بعقيدة الهجر؟ إنْ كانت السيّدة سانت جورج خسارةً لا تُعوَّض، فلا بدّ أنّ نصيحة زوجها المُلهِمة ليست إلاّ نكتةً رديئة وأنّ الهجر مجرّد خطإ. كان أوفرت على وشك أن يهرع عائدا إلى لندن ليُبيّن، من جانبه، أنّه كان على تمام الاستعداد لاعتبار الأمر هكذا، بل إنّه وصل إلى حدّ إخراج مخطوط الفصول الأولى من كتابه الجديد من درج مكتبه، ليدسّه في جيب حقيبته. وقد تسبَّب هذا في لفت انتباهه إلى صفحات عديدة لم ينظر فيها منذ شهور، وكذلك كانت تلك المصادفة، هي أيضًا، سببًا في أن تصدمه البشائر العالية التي تكشف عنها الصفحات، وتلك نتيجة نادرة لمثل هذه الاستعادات، إذ كان من عادته أن يتجنّب هذا ما أمكنه الأمر: إنّها تولِّد داخله في العادة إحساسًا بأنّ جمال ما كتب قد يكون شعورًا ذاتيًا صرفًا ومُضلِّلًا. في تلك اللحظة بدا أنّ إيمانًا قويًا بنفسه قد انطلق من عقاله على نحو غريب بفعل التصحيحات المتتالية لمسوّدته الأولى، وهو ما دفعه إلى اعتقاد أنّ من الأفضل في نهاية المطاف أن يصبر على ابتلائه الحاليّ حتّى نهايته. إنْ كان قادرا على الكتابة بهذا المستوى في ظلّ هذا الحرمان فربّما كان من الخطإ أن يغيّر ظروفه قبل أن تُنهي التّعويذة فعلها. لا شكّ أنّه سيعود إلى لندن، ولكنّه لن يعود إلاّ بعد أن ينهي كتابه. كان هذا هو القَسَم الذي قطعه بينه وبين نفسه، وهو يعيد المخطوط إلى درج المكتب. ويمكن أن نضيف أنّه استغرق وقتًا

طويلًا لإنهاء الكتاب، إذ أنّ الموضوع كان على قدر جماله معقّدًا، وشعر هو بالحرج، بمعنى الكلمة الحرفيّ، بسبب كمال تنقيحاته. كان شيءٌ في داخله يحذّره من أنّ عليه أن يجعله في أقصى ما أمكن من جودة، وإلاّ فإنّه سيفتقر، بحسب معاييره الشخصيّة، إلى عُذر معقول. كان يغمره رعب من إمكانيّة النّقص، لذا ألفى نفسه صارمًا كما يجب في ما يخصّ مسألة الكتابة. وعبر جبال الألب أخيرًا وأمضى الشتاء والربيع والصيف الذي تلاه في إيطاليا، فواجبه مازال، بعد انقضاء اثني عشر شهرًا، لم ينته. «حافظ على تلك الحياة، عشها بتفاصيلها»: كان هذا الأمر الإلزاميّ الذي نطق به سانت جورج يصدق أيضًا على هذه الحالة الخاصّة. طبّق الأمر بحذافيره، وكانت النتيجة إحساسه، بعد حلول الصيف بسيره البطيء من جديد، بأنّه أفرغ كلّ ما في جعبته بالكامل. وفي هذه المرّة دسّ أوراقه ثانية في حقيبته، مرفقةً بعنوان ناشره، وشقّ طريقه نحو الشمال.

غاب عن لندن مدّة عامين، عامين -ويبدوان أطول من ذلك- تسبّبا بإحداث تغيير هائل في حياته، بتأليف رواية ظن أنها أقوى من جنستريلا بكثير، وتوجّه إلى بيكاديللي، في الصباح إثر عودته مباشرة، وهو يحمل في داخله توقّعًا غامضًا بحدوث تغيّرات، باكتشاف أنّ أمورًا عظيمةً حصلت، ولكن كانت هناك تحوّلات طفيفة في بيكاديللي، إذ لم تظهر غير ثلاثة بيوت حمراء كبيرة أو أربعة في البقاع التي كانت تحتلّها بيوت سوداء صغيرة، وكان ضوء أواخر يونيو يتسلّل من بين فتحات سور منتزه غرين بارك الصّدئ، ويبرق على ورنيش العربات السائرة كما رآه من قبل في شهور يونيو أخرى مضت بسرعة أكبر. كانت تلك

تحيّة امتنَّ لها، فقد بدت ودودة ودقيقة، بالإضافة إلى ابتهاجه باكتمال كتابه، وتحسّس بيديه من جديد بلده والمدينة الممتعة الطاغية الضخمة التي توحي بكلّ شيء، وتضمّ كلّ شيء، «ابق في بلدك وقم بعملك هنا، قم بأعمال يمكن لنا تثمينها»، كان سانت جورج قد قال له. والآن خطر له أنّ عليه ألاّ يطمح إلى شيء أفضل من بقائه في بلده إلى الأبد. ومع نهاية عصر ذلك النهار شقّ طريقه إلى «ساحة مانتشستر»، باحثًا عن رقم بيت لم ينسه. ولكنّ الآنسة فانكورت لم تكن بالبيت، لذا أدار ظهره للباب بحزن. وتسبّبت التفاتته في وضعه وجهًا لوجه مع رجل كان يقترب من البيت وأدرك بعد نظرة أخرى أنّه والد الآنسة فانكورت. حيّى پول الرجل، وردّ الجنرال التحيّة بدماثته المعهودة، دماثة تبدو شديدة، على أيّة حال، حتّى إنّك لَتعجز عن الجزم بما إذا كان قد عرفك أم لا. أحسَّ الزائر المُحبَط بحافزٍ يدفعه إلى محادثته. ثمّ بات في الوقت ذاته يدرك، وهو في تردّده ذاك، أنّه لا يملك شيئًا محدَّدًا يقوله، ومقتنعًا بأنّ العسكريّ الكهل خلط بينه وبين شخص آخر بالرغم من أنّه تذكّره. ولذا تابع طريقه من غير أن يحسب حسابًا لما كان من تأثير لا يقاوَم لأنّه عرف الجنرال الذي لم يفوّت يومًا فرصة للثرثرة. كان وجه صديقنا الشابّ مفعمًا بالتعابير، ونادرا مّا تترك قوّة ملاحظة الجنرال الأمر يمرّ بسلام. لم يكن قد خطا عشر خطوات قبل أن يسمع نداءً خلفه بنبرة ودودة مشوبة ببعض الارتباك: «إيه، أستسمحك!». استدار فوجد الجنرال مبتسمًا له من الرواق وهو يقول: «ألا تدخل؟ لن أفوّت عليك فرصة استغلالي!»، رفض پول الدعوة، ثمّ أحسّ بالندم، لأنّ الآنسة فانكورت قد تعود في أيّ لحظة،

بما أنّ النهار بلغ آخره. ولكنّ والدها لم يمنحه فرصة ثانية؛ إذ بدا أنّه لا يرغب في أكثر من ألاّ يظهر بمظهر الفظّ. ولكن يبدو أنّ نظرة أخرى إلى وجه الزائر أثارت فيه ذكرى، كانت كافية على الأقلّ لدفعه إلى أن يقول: «لقد عدت، لقد عدت؟»، كان پول على وشك أن يردّ بأنّه عاد ليلة البارحة، ولكنّه كبح، في اللحظة التالية، إمكانيّة اتّقاد هذا الضوء الساطع الذي سيكشف مدى تعجّله في الزيارة، لذا اكتفى بنعم، مستفسرًا عن السيّدة الصغيرة التي لم يجدها. كان قد أخّر وقت الزيارة على أمل أن تكون موجودة. «سأخبرها بهذا، سأخبرها»، قال الكهل، ثمّ أضاف بسرعة ولباقة: «ستمنحنا نتاجًا جديدًا؟ مرّ وقت طويل، أليس كذلك؟»، الآن تذكّره كما يجب.

«طويل إلى حدّ مّا. أنا بطيء جدًا،» شرح پول، «التقينا في سمرسوفت منذ وقت طويل».

«أوه نعم، مع هنري سانت جورج. أتذكّر هذا جيّدًا. قبل زوجته المسكينة...»، صمت الجنرال فانكورت لحظة، وقد انكمشت ابتسامته، «أتجرّأ على أن أقول إنّك تعرف».

«عن وفاة السيّدة سانت جورج؟ بالتأكيد، سمعت بالخبر آنذاك».

«أوه لا، أقصد، أقصد أنّه على وشك الزواج».

«آه، لم أسمع بهذا!»، ولكن لمّا كان پول على وشك أن يضيف «بمن سيتزوّج؟» أغلق الجنرال المجال أمامه.

«متى عدت؟ علمت من ابنتي أنّك كنت مسافرًا. كانت شديدة الأسف. يجب عليك أن تهديها شيئًا جديدًا».

«عدت ليلة البارحة»، قال صديقنا الشابّ، وقد شعر بأنّ شيئا مّا حدث وجعل كلامه في تلك اللحظة على شيء من الثقل.

«آه، من عظيم لطفك أنّك جئت بهذه السرعة. ألا يمكنك أن تأتي للعشاء؟».

«للعشاء؟»، كرّر پول العبارة بآليّة، من غير أن يرغب في طرح سؤاله عمّن تزوّج سانت جورج، مع أنّه لم يكن يفكّر بغير هذا.

«سيكون هناك أناس عديدون، كما أعتقد، وسانت جورج بكلّ تأكيد. أو بعد العشاء لو كنت تفضّل هذا. أظنّ أنّ ابنتي تتوقّع...» بدا أنّه انتبه إلى شيء مّا في وجه الزائر الواقف من علٍ (كان من مكانه على ارتفاع أعلى) أرغمه على إيقاف كلامه، وقد أثار فيه هذا التوقّف إحساسًا بالاضطراب سعى إلى التخلّص منه فورًا. «لعلّك لم تسمع إذن بأنّها ستتزوّج قريبًا».

فغر پول فاه مصعوقًا من جديد: «ستتزوّج؟».

«من السيّد سانت جورج، لقد سُوّي الأمر منذ وقت وجيز. زواج غريب، أليس كذلك؟»، لم ينطق مستمعنا بأيّ رأي في هذه المسألة: بل اكتفى بالتّحديق، «ولكنّني أجرؤ على قول إنّه سينجح، هي مهووسة بالأدب!»، قال الجنرال.

استحال وجه پول إلى حمرة فاقعة، «أوه، يا لها من مفاجأة، هذا مثير جدّا، ساحر جدّا! أخشى ألاّ أستطيع الحضور على العشاء، أشكرك بلا حدّ!».

«طيّب، لا بدّ أن تحضر الزفاف!»، صاح الجنرال. «أوه، أتذكّر ذلك اليوم في سمرسوفت. إنّه رجل عظيم، كما تعلم».

«ساحر، ساحر!»، ردّد پول ليهمّ بالانسحاب، وصافح الجنرال ثم انطلق. كان وجهه أحمر وغمره شعور بأنّه يصبح قرمزيًا أكثر فأكثر. طوال المساء في البيت -إذ اتّجه إلى بيته رأسًا وظلّ بلا عشاء- كان خدّه يحترق بين لحظة وأخرى كأنّه مسفوع. لم يفهم ما حدث له، ما الخدعة التي كان ضحيّتها، ما الخيانة التي مورست عليه. «لا شيء، لا شيء»، قال لنفسه، «ليس لي أيّ علاقة بهذا الأمر. أنا خارج الموضوع، ليس هذا من شأني». ولكنّ تمتمة الدهشة تلك تُتبَع من جديد ومن جديد بصياح مختلف: «هل كانت خطّة، هل كانت خطّة؟»، وأحيانًا كان يصرخ بينه وبين نفسه منقطع الأنفاس: «هل كنتُ مغشوشًا، هل باعوني، هل خدعوني؟» وعلى أيّة حال، كان مضطربًا، كان ضحيّة ذليلة. بدا كأنّه لم يفقدها حتّى الآن، لقد هجرها، نعم، ولكن تلك مسألة أخرى، ذاك كان بابًا موصدًا لا مُقْفلًا. والآن بدا كأنّ الباب انصفق في وجهه تمامًا. هل توقّع منها أن تنتظره، هل كانت ستمهله ما يشاء من الوقت: سنتان دفعة واحدة؟ لم يكن يعرف ما كان يتوقّعه، كلّ ما كان يعرفه هو ما لم يكن يتوقّعه، لم يكن هذا، لم يكن هذا. اندلع الاستغراب والمرارة والغضب في داخله ثمّ استعرت كلّها حينما فكّر بالاكتراث والإخلاص والسذاجة التي أنصت بها لكلام سانت جورج. استمرّ المساء وامتدّت الأضواء، ولكن حتّى بعدما حلّ الظلام بقي جالسًا دون مصباح. ألقى بجسده على الأريكة، حيث بقي هناك لساعات مسبلًا عينيه أحيانًا ومحدّقًا في الظلام أحيانًا

أخرى، يفكّر في موقف رجل يعلّمه كيف يتحمّل الأشياء؛ يتحمّل أن يُعامَل كأحمق. وكم سهَّل هو الأمر إلى حدٍّ كبير، لقد خطرت له الفكرة كموجة ملتهبة. فجأة، وحينما سمع الساعة تدقّ إحدى عشرة رنّة، قفز من مكانه، متذكّرًا ما كان الجنرال قد قال له بشأن إمكانيّة ذهابه بعد العشاء. سيذهب، سيراها على الأقلّ. ربّما كان عليه رؤية ما يعنيه الأمر. أحسَّ كما لو أنّه أُعطي بعض عناصر معادلة صعبة بينما كان الآخرون ينتظرون منه حلّها: كان عاجزًا عن حلّها إلى أن يحصل على الرموز كلّها.

ارتدى ثيابه وانطلق بسرعة، حتّى إنّه وصل إلى «ساحة مانتشستر» مع انتصاف الساعة الحادية عشرة. هناك عربات كثيرة عند الباب، ثمّة حفلة مستمرّة؛ وهو ظرف منحه في آخر الأمر بعض الاسترخاء، إذ سيكون بإمكانه الآن رؤيتها وهي وسط حشد. مرّ به الناس على الدّرج؛ كانوا يغادرون، «يواصلون» خطواتهم بحركة القطيع المُطارَد التي تميّز مجتمع لندن ليلًا، ولكنّ جماعات كثيرة بقيت في صالة الاستقبال، ومرّت بضع دقائق، إذ لم تسمع الخدم يعلنون وصوله، قبل أن يراها ويتحدّث إليها. في هذه الهنيهة القصيرة كان قد لمح سانت جورج يتحدّث إلى سيّدة أمام المدفأة، ولكنّه أدار وجهه مباشرةً، وهو يشعر بأنّه لم يكن بعدُ جاهزا لمواجهة كهذه، ولذا لم يكن واثقًا ممّا إذا كان مؤلّف رواية «شادومير» قد انتبه إلى وصوله. وعلى أيّة حال فإنّه لم يقترب، مع أنّ الآنسة فانكورت فعلت هذا حالما رأته، بل كادت تبدو مندفعةً نحوه، وهي تبتسم بجمال متألّق رنّان. لقد نسي شكل رأسها، وملامح وجهها؛ كانت ترتدي الأبيض، وعلى

فستانها نقوش ذهبيّة، وعلى رأسها مثل تاج ذهبيّ. أدرك في لحظة واحدة أنّها كانت سعيدة، سعيدةً بروعةٍ مؤلمة. ولكنّها لن تتحدّث إليه بشأن هذا، وإنّما ستتحدّث عنه هو وحده.

«كم أنا مسرورة؛ أخبرني أبي بقدومك. كم هو لطيف منك أن تأتي!»، صعقته بنضارتها وشجاعتها،وعيناه تتأمّلانها، حتّى إنّه عجز عن كبت الأفكار المتصارعة داخله: «لِمَ اختارته هو عوض أن تنتصر للشّباب والقوّة والطّموح والمستقبل؟ لِمَ اندفعتْ، بعنفوانها الفتيّ النّفيس، إلى الفشل، نحو الرّكون إلى التقاعد والشيخوخة؟»، وفي غمرة أفكاره وصل عند تلك اللحظة الجارحة إلى حدّ الكُفر بكلّ ما بقي لديه من إيمان بالمعلّم غير المعصوم من الزّلل، «أعتذر بلا حدّ لأنّني لم أكن موجودة»، تابعت كلامها، «أخبرني أبي. كم هو ساحر أنّك جئت بهذه السرعة!».

«وهل يفاجئك هذا؟»، سألها پول أوڤرت.

«منذ اليوم الأوّل؟ لا، لن يفاجئني شيء منك، إنّه لرائع»، قاطعت كلامَها سيّدة كانت تُلقي عليها تحيّة الوداع، ولعلّه قرأ أنّها لا تتكلّف شيئًا إذ تتحدّث إليه بهذه النبرة العفويّة؛ كان هذا أسلوبها المتحرّر السخيّ القديم، مع سماحة زائدة بعينها صقلها الزّمن، وإنْ كان هذا الأسلوب قد بدأ يصيب الهدف بدقّة، في مثل هذا المنعطف من حياتها، فلعلّه كان في الأيّام السابقة يعني القليل أو الكثير، مجرّد سماحة عفويّة، مع فارق أنّها أصبحت الآن مكتفية وصارت جاهزةً للعطاء من دون أن تكون محتاجةً إلى أيّ شيء، أوه، كم هي مكتفية

الآن، ولِمَ لا ينبغي لها أن تكون؟ لِمَ لا ينبغي لها أن تتفاجأ بزيارته في أوّل أيّام عودته، بعد كلّ هذا اللطف الذي تعامل به معها؟ وبينما كانت السيّدة تواصل الاستحواذ على انتباهها كلّه ابتعد پول وهو يستشعر اضطرابًا غريبًا في روحه الفنيّة المعقّدة، وبشيءٍ من خيبة الأمل اللامبالية. كانت سعيدةً جدّا إلى حدّ الحماقة تقريبًا، وهذا يناقض ما وجده فيها سابقا من ذكاء استثنائيّ، ألم تكن تعلم مدى ما قد يصل إليه سانت جورج من سوء، ألم تُدرك الضّحالة البائسة..؟ إنْ لم تكن تدرك هذا فإنّه ليس لها من قيمة، وإنْ كانت تدرك هذا فما الداعي إلى إهانة النّقاء تلك؟ واصل هذا السؤال التقلّبَ في ذهنه حينما استقرّت عينا فتانا أخيرًا على العبقريّ الذي أسدى إليه نصيحة أثناء أزمة فاصلة. ما يزال سانت جورج أمام المدفأة، ولكنّه وحده الآن، ثابتًا في وقفته، ينتظر، كأنّه يريد إيقاف الجميع والتحدّث إليهم، والتقت عيناه بتحديقة ضبابيّة من صديقه الشابّ الذي كان شديد الاضطراب إلى حدّ ادّعاء حقّه (الحقّ الذي سيتّقد بفعل استيائه) في أن يعدّ نفسه ضحيّة، وبشكل مّا بدا أنّ بقايا السؤال كانت تنهار أمام ألق المعلّم. كان ألقًا رائعًا مثل ألق ماريان فانكورت، وإشارةً جليّةً إلى الإنسان السعيد، لكنّه كان يعني أيضًا بالنسبة إلى پول أوڤرت أنّ مؤلّف «شادومير» بات خارج الحسابات تمامًا الآن، لم تعد له قيمة الكاتب. وحين ابتسم من مكانه مرحِّبًا بدا مبتذلًا تقريبًا، بل أقرب إلى الغرور. تخيّل پول لحظة أنّه تردّد في الاقتراب، كما لو أنّه كان يشعر، أمام العالم بأسره، بضميره المعكّر؛ ومن بعد ذلك تلاقيا في منتصف الغرفة وتصافحا، بقوّة، وبحرارة

من جانب سانت جورج، ثمّ عادا معًا إلى حيث كان الأكبر سنّا يقف قبل لحظات، وقال سانت جورج: «آمل أنّك لن تسافر من جديد. كنتُ أتناول العشاء هنا. أخبرني الجنرال بقدومك». بدا وسيمًا نضرًا، كأنّه لا يزال يملك رصيدًا كبيرًا في الحياة، وصوَّب أقصى نظرات المودّة والبراءة إلى مَنْ كان مريدَه قبل سنتين، وسأله عن كلّ شيء: صحّته، مخطّطاته، مشاريعه الأخيرة، كتابه الجديد. «متى سيصدر، قريبًا، قريبًا، كما آمل؟ رائع، ها؟ هذا صحيح؛ أنت في نعمة، أنت في رفاهيّة! لقد أعدتُ قراءة أعمالك كلّها في الأشهر الستّة الأخيرة». انتظر پول ليرى إنْ كان سيخبره بما قاله الجنرال له عصر هذا اليوم، وما لم تقله الآنسة فانكورت بطبيعة الحال، نطقًا على الأقلّ، ولكن حينما لم تُنطَق العبارة تمكَّن أخيرًا من إلقاء السؤال: «هل هو صحيح، الخبر العظيم الذي سمعته؛ أنّك ستتزوّج قريبًا؟».

«آه، لقد سمعت بالأمر إذن.»

«ألم يخبرك الجنرال؟»، سأله پول.

كان وجه سانت جورج متألّقًا، «يخبرني بماذا؟».

«بأنّه نقل إليّ الخبر عصر هذا اليوم؟».

«صديقي العزيز، لا أذكر هذا. لقد كنّا مع حشد من الناس. آسف، لأنّني شخصيّا فقدتُ في هذه الحالة لذّة أن أخبرك بحقيقةٍ تمسّني بهذه الحميميّة. إنّها حقيقة، غريبة كما تبدو. لقد باتت حقيقةً هكذا. أليس هذا سخيفًا؟»، نطق سانت جورج عباراته بلا أدنى ارتباك، ولكنّه من ناحية أخرى، وبحسب ما خُيِّل إلى صديقنا، نطقها

بلا صفاقة خفيّة، وما صدَمَ الشابّ هو أنّ التحدّث بهذه الأريحيّة والهدوء يعني ببساطة أنّ المعلّم نسي ما دار بينهما من نقاش. ولكنّ كلماته التالية أثبتت أنّه لم ينسَ، وتركت، في ذاكرة پول، أثرًا ساخرا ولا شكّ، إن لم يكن قاسيًا. «هل تتذكّر النقاش الذي تبادلناه في بيتي تلك الليلة، حين جرى ذكر اسم الآنسة فانكورت؟ لطالما فكّرتُ فيه منذ ذلك الوقت».

«نعم، لا عجب أنّك فعلت ما قلت»، كان پول حريصًا على تثبيت نظراته عليه.

«في ضوء المناسبة الحاليّة؟ آه، ولكن لم يكن هناك ضوء حينها. كيف كان لي أن أتنبّأ بحلول هذه الساعة؟».

«ألم تفكّر بأنّها محتملة؟».

«لا، وشرفي»، قال سانت جورج، «أدين لك بهذا التأكيد حتمًا. فكِّرْ بالمدى الذي تغيّر فيه وضعي».

«طيّب، طيّب،» تمتم فَتَانا.

واصل محادثه كلامه كما لو أنّه كان، من موقع رجل الخيال والحساسيّة، جاهزًا تمامًا -بعدما فُتح الموضوع- لتقديم جميع التّطمينات، إذ كان قادرًا بعبقريّته وأسلوبه على التطرّق إلى كلّ ما يودّ محادثه أن يذكره. «ولكن هذا كلّ ما في الأمر. صدقًا، لم أكن، وأنا في هذا العمر، لأحلم بذلك، وأنا أرمل لديه أبناء شباب ولم يعد يملك الكثير من أيّ شيء آخر! جرت الأمور على نحو مختلف ممّا كان بوسع

أيّ شخص أن يتخيّل، وأنا محظوظ بلا أدنى شكّ. كانت متحرّرة من الضّغوط، ومع ذلك وافقتْ. لعلّ حظوظي كانت أفضل من حظوظ أيّ شخص آخر- إذ أتذكّر مدى حبّك لها قبل أن تسافر، ومدى حبّها لك- بإمكانك تهنئتي بكلّ عقلانيّة».

«كانت متحرّرة من الضّغوط!»، كان لتلك الكلمات أثر كبير في نفس پول أوڤرت، وكاد يتلوّى من الألم بفعل المفارقة الساخرة الكامنة فيها، فلم يكن يهمّ حقّا أكانت مقصودةً أم عفويّة. كانت، بطبيعة الحال، متحرّرة، وربّما كان هذا بفضل عدم مبادرته؛ أَوَلم تكن إشارة المعلّم إلى أنّها أحبّته جزءًا من تلك المفارقة الساخرة أيضًا؟ «ظننتُ أنّك لم تكن، بحسب رؤيتك، تقبل بزواج الكاتب».

«طبعًا، طبعًا. ولكنّك لا تعتبرني كاتبًا؟».

«يجب أن تستحي من نفسك»، قال پول.

«أستحي من الزواج مرّة أخرى؟».

«لن أقول هذا، ولكنْ أن تستحي من أعذارك».

رسم أكبرهما ابتسامةً مشرقة. «يجب أن تترك الحُكم عليها لي، يا صديقي العزيز».

«نعم، لِمَ لا؟ بما أنّك حكمتَ على أسبابي بشكل رائع».

فجأةً بدت نبرة تلك الكلمات توحي إلى سانت جورج بالحقيقة التي لا يمكن إنكارها. حدّق بذهول كمن يتجرّع مرارة. «ألا تظنّ أنّني كنتُ صادقًا معك؟».

«ربّما كان بوسعك أن تخبرني آنذاك».

«صديقي العزيز، عندما قلتُ إنّني لم أكن قادرًا على إدراك ما سيحدث مستقبلًا..!».

«أقصد في ما بعد».

تعجَّب المعلّم. «بعد وفاة زوجتي؟».

«عندما خطرت لك الفكرة».

«آه لا، لا أبدًا! أردتُ إنقاذك، بما أنّك نادر وثمين».

نظر إليه پول المسكين بصرامة. «هل ستتزوّج الآنسة فانكورت لتنقذني؟».

«ليس في المطلق، ولكنّ هذا سبب إضافيّ. سوف أكون سبب تكوينك»، ابتسم سانت جورج، «ذُهلت بشدّة، بعد نقاشنا، بما في الأسلوب الذي غادرتَ به البلاد من إخلاص وجسارة، بل وربّما ذُهلت أكثر بقوّة شخصيّتك في البقاء خارج البلاد. أنت قويّ جدًا، أنت قويّ على نحو رائع».

حاول پول التوغّل في ما وراء عينيه الملتمعتين؛ الغريب في الأمر أنّه بدا صادقًا، لا شيطانا عابثًا. استدار وأخذ يبتعد، وما إن فعل هذا حتّى سمع المعلّم يقول شيئًا عن تقديم البرهان كاملًا لهم، إذ أنّ هذا سيمثّل محور سعادة في شيخوخته. واجهه من جديد، مصوّبًا إليه نظرةً أخرى، «هل تعني قولك إنّك توقّفت عن الكتابة؟».

«صديقي العزيز، فعلت هذا بطبيعة الحال. لقد فات الأوان. ألم أخبرك من قبل؟».

«أعجز عن التصديق!».

«لن تصدّق، بطبيعة الحال، مع كلّ هذه الموهبة التي لديك! لا، لا؛ سأكتفي في ما تبقّى من حياتي بقراءتك أنت وحدك».

«وهل تعرف هي ذلك، أعني الآنسة فانكورت؟».

«ستعرف، ستعرف»، هل يعني بهذا -وغرق فتاتا في التفكير- إشارةً ضمنيّة إلى أنّ الدعم الذي سيتلقّاه من ثروة تلك السيّدة الصغيرة، بصرف النّظر عن مدى تواضعها، سيكون تعويضا عن عزمه على إيقاف فعل الكتابة بشكل جاحد بعد أن بات منهَكًا؟ وعلى نحو مّا، وهو يقف هناك بكامل نضجه الذكوريّ الناجح، لم يكن ليوحي أبدًا بأيّ علامة إرهاق، «ألا تتذكّر المغزى من تقديم نفسي لك على أساس أنّني مُوجِّه؟»، واصل سانت جورج كلامه، «تمعّن متى شئت في المثال الذي أبدو عليه الآن».

ما من شكّ في أنّ هذا الشّيطان السّاخر تجاوز حدّه. ابتعد پول عنه مكتفيًا بإيماءة وداع وبإحساس قلبٍ موجوع بأنّه قد يعود إليه وإلى تألّقه السّلس، إلى أسلوبه الرائع في ترتيب الأشياء، في وقت مّا من المستقبل البعيد، ولكنّه يعجز عن مؤاخاته الآن. وبسبب أوجاعه، كان من الضروريّ أن يركّز في تلك اللحظة على حدّة شكواه، وما يزيد الأمر قسوةً أنّها كانت بسبب تصرّف غير مشروع، وبلا شك، بسبب استغراقه في التّكفير بِبَلْواه تلك. نزل الدّرج من غير أن يودّع الآنسة فانكورت، ولم يكن قد لمحها وهو يغادر الغرفة. كان سعيدًا لأنّه خرج إلى الليل المظلم الصادق الواضح،

كي يخطو بسرعة، ويتّجه إلى بيته مشيًا. مشى وقتا طويلا، على غير هدى، شارد الذهن. كان مستغرقًا في التفكير بأمور كثيرة أخرى. وفي نهاية المطاف، استعادت خطواته اتّجاهها، وبعد مضيّ ساعة وجد نفسه أمام باب بيته في الشارع المقفر المتواضع الصغير. توقّف قليلًا، وهو لا يزال يقلّب الأسئلة في ذهنه قبل الدخول، حيث لا شيء حوله أو فوقه سوى الظلام الذي لا قمر فيه، ومصباح ضعيف أو اثنين، وبضع نجمات باهتة بعيدة. رفع عينيه إلى هذه الأشياء الشاحبة الأخيرة. كان يقول لنفسه إنّه «مخدوع» ولا ريب، مخدوع على نحو شيطانيّ، وتساءل عمّا إذا كان سانت جورج، وهو في وضعه الجديد سيُصدر، مع نهاية هذا العام، عملًا بجودة أعماله القديمة، عملا من نوع «شادومير» أروع من أروع أعماله. ومع أنّه يقدّر موهبته كثيرا، فإنّ پول تمنّى حقّا ألاّ يحدث مثل هذا الأمر؛ بدا له حينئذ أنّه لن يقوى على احتماله لو حصل. كانت كلمات مستشاره السابق لا تزال تطرق سمعه، «أنت قويّ جدّا، أنت قويّ على نحو رائع»؛ هل كان كذلك حقّا؟ لا شكّ أنّه كذلك بالفعل، وقد يساهم هذا ولو قليلًا في الانتقام، هل هو كذلك حقّا؟ وقد يتساءل القارئ من جهته عمّا إذا كان الحظّ قد ابتسم حتّى الآن للشابّ المحتار، ولعلّ الإجابة الأفضل عن هذا التساؤل هي أنّه سيفعل ما بوسعه، ولكن الوقت ما يزال مبكّرًا.

بعدما صدر الكتاب الجديد في الخريف، وجده السيّد والسيّدة سانت جورج مذهلًا حقّا. لم يُصدر المعلّم أيّ كتاب بعد، ولكنّ پول

لم يشعر بالأمان حتّى الآن. وقد أقول عنه -على أيّة حال- إنّه متى حصل هذا فسيكون حتمًا أوّل من يحتفي بالكتاب، وقد يكون هذا برهانًا على أنّ المعلّم كان مُحقًا تمامًا وعلى أنّ الطبيعة نذرته للشغف الثقافيّ، لا للشغف الشخصيّ.

هنري جيمس

درس المعلّم

تشكّل نوفيلا «درس المعلّم» (وعملان آخران لهنري جيمس) الكتاب رقم 42 من اختيارات بورخيس في مشروعه «المكتبة الشخصيّة: 100 كتاب عظيم».

على وشك الشّروع في مسيرة أدبيّة واعدة، تغمر البهجة الكاتب الشاب بول أوفرت بعد تعرّفه إلى الروائيّ المكرّس هنري سانت جورج، بل وتغمره بهجة أكبر حينما يضمّه المعلّم تحت جناحه، مع أنّه لم يعد بمستوى ألقه القديم. يُسدي سانت جورج نصائح كثيرة للكاتب الشاب، وبعد أن يُنصت إلى تحذيراته الصارمة بشأن صون عزلته واستقلاليّته كي لا يُهدر موهبته، يسافر بول إلى أوروبا، حيث ينغمس في عمله. ولكن عند عودته، سيكون في استقباله اكتشاف صاعق.

«في درس المعلّم، لا يكتفي جيمس بالسعي إلى إتاحة المجال للكاتب المعلّم هنري سانت جورج لمنح الكاتب الشاب درسين مختلفين وحسب، بل يُتيح المجال للقارئ أيضًا كي يكتشف براعة هنري جيمس نفسه في تناول الأحداث المتشابكة، والدراما الساخرة التي تُغلّف الدوافع المعقّدة وانقلاب حبكة الأحداث. فليس المعلّم سانت جورج فحسب، بل هنري جيمس.»

كولم توبين، كاتب أيرلنديّ

ISBN: 978-9938-24-049-8